جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالإسكندرية
قسم الأدب والنقد

بحث بعنوان

فن الوصف فى شعر

محمود سامى البارودى

مقدمته

دكتــورة

جميلة محمد عماد الدين محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

فن الوصف
فى شعر
محمود سامى البارودى

دكتـــــورة
جميلة محمد عماد الدين محمد
المدرس بقسم الأدب والنقـــــــــد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
بالإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

فن الوصف فى شعر محمود سامى البارودى

اخترت هذا اللون من ألوان شعر البارودى ، لأنه أغناها بعناصر الجمال ، وأحفلها بأسباب الحسن.

" والحق أن الوصف هو الشعر ، وبقية الأبواب الأخرى على جلال بعضها وانصراف الشعراء اليها فى بعض عصور الأدب تجئ تابعة له ، متفرعة عنه ، نابغة من منابعه وإن بدا الأمر غير ذلك ، والشاعر الحق هو الذى يتملكه ما فى الكون من مناظر تبهر النواظر فيستطيع وصفها ، وتصوير أثرها فى نفسه ، وهو الذى يبهره ما فى الحياة من ظواهر تملك الحواس ، فيستطيع رسمها ، ووصف ما يخالج النفس عند مرآها ، فهو يعبر عما لا يستطيع غيره التعبير عنه من وصف لمعنى من معانى الجمال ولا يقف التعبير عند ناحية بذاتها من نواحى الجمال وإنما تختلف هذه المناحى ، وتتعدد الزوايا التى ينظر منها الشعراء فتتعدد عناصر الجمال ، فيرى شارع البدر ويصور استداراته فى القبة الزرقاء ، ويصور آخر وضاءته بين سواطع النجوم التى يذهب بسطوعها ، وتصور ثالث أثره فى المحبين ، وفى كل من هذه الفكر حُسن وروعة وجمال ، يرضى عنه شاعر ، ولا يرضى عنه آخر ، وكلاهما يصف شعوره ، فيجيد التعبير عن وصف ذلك الشعور، وكلما اشتد الشاعر تأثراً بهذا المنظر أو بذاك وجد عناصر الإجادة لديه مواتية ، واستطاع أن يصوره على حقيقته دون مبالغة أو تزيُّد " (١)

---

(١) الوصف فى الشعر العربي/ عبد العظيم على قناوى جـ ١ مقدمة الكتاب – الطبعة الاولى ١٣٦٨ هـ – ١٩٤٩م . وانظر وصف الطبيعة وتطوره فى الشعر العربي / محمد خلف الله وآخرون " مقدمة الكتاب – مكتبة نهضة مصر – الفجالة .

❁ وشاعرنا هو :

محمود سامى البارودى ، من أسرة جركسية ، تنتمى الى حكام مصر المماليك،تلقّى دروسه شأن أقرانه من أبناء الموسرين آنذاك فى منزل الأسرة ثم التحق بالمدرسة الحربية مع نظرائه من الجركس سنة ١٨٥٤م ، ولم يكن لمصر فى تلك الحقبة شأن من الناحية العسكرية كما كان الحال فى عهد محمد على ، ومن ثم لم يحقق البارودى - كما كان يأمل - طموحه فى خوض المعارك وتحقيق البطولات ، وكان لديه ميل الى الأدب، وحب للشعر، فعكف على تحقيق الهواية ، وافرغ فيها طاقاته الإبداعية .حتى صار علما يشار اليه بالبنان ، واستحق ان يلقب " رب السيف والقلم " (١)

تقلد البارودى مناصب عديدة فكان مديرا للشرقية ثم رئيسا للضبطية ، ثم صارت اليه نظارة الأوقاف فنظارة الجهادية . ثم صارت اليه رئاسة مجلس النظار قبيل الثورة العرابية ، فلما كان الإحتلال الانجليزى وقبض على زعماء الثورة العرابية ، كان البارودى منهم فحوكم ونفى الى جزيرة سرنديب ، إحدى جزر الهند وبقى فى منفاه سبعة عشر عاما عانى فيها آلام الوحشة والاغتراب وفقد الأهل والأحباب ، وكان النفى سببا فى كثره علله واسقامه الى ان عفى عنه وعاد الى مصر سنة ١٩٠٠م وأبيح له التمتع بالحقوق المدنية ، ولكن الموت لم يلبثه طويلا فقد قضى الى رحمة الله سنة ١٣٢٢هـ - ١٩٠٤ م (٢)

---

(١) الأدب العربى الحديث د/ احمد عبد الغفار عبيد ص ٣٣ ط ١٤١٧ هـ ١٩٩٦م .

(٢) المفصل فى تاريخ الأدب العربى / احمد الاسكندرى وآخرون جـ٢ ص ١٧٤

وحفلت حياة البارودى قبل أن تقيده الوظائف الرسمية برحلات وأسفار عديدة ، أثرت فى فكره وشعوره ، ومن ثم فى شعره ، فقد شارك وهو لا يزال فى صفوف الجيش فى حروب البلقان ، ورحل كذلك إلى تركيا وأقام بها زمنا ، فأثرت مشاهداته فى تلك الرحلات فى شعره ، و أمدته بفيض من المرائى ، والأفكار ، وأملت على قلبه وعقله تجارب وخبرات لها بلا ريب أثر على شعره ، كما أن البارودى كان مفطورا على قوة الشخصية ، والاعتزاز بالنفس والشموخ والترفع عن الصغائر وعلو الهمة ، وقد انعكس ذلك كله على شعره فجاء على نحو متميز شكلا ومضمونا[١] ، ومعنى هذا ان الحياة السياسية كانت دافعة له فى الاتجاه الى الشعر والاعتداد بموهبته الشعرية ، وليست الحياة العسكرية - كما يتبادر الى الذهن - ثانيا له عن إتقان الأدب واستيفاء الاطلاع[٢]

ويُعد البارودى من أكثر شعراء العصر قراءة للشعر القديم ، واستفادة بما قرأه منه ، لأنه قرأه عن هوى و ميل لا عن دراسة ، ولذلك حاكى شعر البداوة فذكر الرسوم والأطلال والرعيان والقبائل ، ولكنه كان فى محاكاته مطبوعا ليس له منها إلا الرغبة فيها ، فكان فنّانا خالقا فى اتباعه وفى ابتداعه على السواء .[٣] فجاء شعره متسماً بقوة الأسلوب وروعة التصوير والدقة فى اختيار الألفاظ وانتقاء العبارات واستطاع أن

---

(١) الأدب العربى الحديث د/ احمد عبد الغفار عبيد ص ٣٤

(٢) التراث النقدى قبل مدرسة الجيل الجديد / عبد الحى دياب ص ٣٥ طبعة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م دار الكاتب العربى للنشر - القاهرة .

(٣) أدب مصر الحديث / مصطفى زيد ص ٧٣ ط الاولى ١٩٤٩م .

يُباعد بين شعره وبين المحسنات البديعيـــة المتكلفـــة ، ولـــذا اســـتحق أن يوصف بزعامته للشعر العربى فى العصر الحديث .(١)

قال عنه الزيات " إن كان لا مرئ القيس فضل فى تمهيد الشـــعر وتقصيده ، ولبشار فى ترقيته وتجويده ، فللبارودى كلُّ الفضل فى إحيائـه وتجديده" (٢)

فجدد البارودى فى موضوعات الشعر فكان من أوائل مـــن قـــالوا الشعر السياسى والشعر الاجتماعى والشعر الوطنى كما كان بارعـــا فـــى الوصف ، رسم فى شعره لوحات متعددة لوصف الطبيعة أحيانا ولوصـــف المشاهدات والبقاع الكثيرة التى رآها والمعارك التى خاضها وشارك فيـــها أحيانا أخرى " والجديد فى وصف البارودى أنه أفرد له قصائد بعينـــــها ، ولم يأت به عرضا فى ثنايا القصائد ، وكان يصـــف لمجـــرد الوصـــف ، ولأن شاعريته وحواسه المرهفة وتذوقه الحاد للجمال كانت تدفعـــه الـــى قول الشعر، والى وصف مشاهداته لا كما هـــى فـــى الطبيعـــة ، ولكـــن يخرجها ملونة بشخصيته وشعوره وأفكاره .(٣)

وكان البارودى مفتونا بالطبيعة ، يرى شـــعرها لا ينضـــب منـــه معين الإلهام ،ويرى فى كل سطر من هذا الشعر آية من آيـــات الجمـــال عليه ان يترنم بها ، ويُظهر محاسنها للأجيال من بعده ، ويترجمها للنـــاس

---

(١) مجلة كلية الدراسات الأسلامية والعربية للبنات بالمنصورة- بحث بعنوان " الرثاء فـــى شعر البارودى " د/ مصطفى مصطفى البسطويسى ص ١٩١ العدد الثانى ١٤٠٩هـــ - ١٩٨٩ م .

(٢) تاريخ الأدب العربى / حنا الفاخورى ص ٩٦١ ط ١٩٥١ م .

(٣) فى الإدب الحديث / عمر دسوقى جـ١ ص ١٩٧ ط السابقة دار الفكر العربى

حتى يعجبوا بها كما أعجب ، وديـــوان البـــارودى غـــاص بالمصوفـــات وبقصائد الوصف ، وما دام الشاعر قد انصرف عـــن المديـــح وعـــن ان يكون شعره مظهرا للنفاق والخداع ، والوقوف بأبواب الملوك والأمـــراء ، فقد أصبح شعره طوع يده يسجل به مشاعره الخاصة ، وشعراء العربيـــة الوصافون - أى الذين أكثروا من الوصف - قليلـــون ، لأن المديـــح قـــد ألهاهم عن قراءة محاسن الكون ، ويعد البارودى من أكثر شعراء العربيـــة وصفا ، بل يُعد فى الطليعة وشعره الوصفى يفخر بـــه الشـــعر العربـــى ويستطيع ان يُباهى به خير ما عند العرب من شعر وصفى) [١].

❁ ميادين الوصف عند البارودى

قصائده فى وصف مظاهر الطبيعة

مثل قصيدته فى وصف أيام الربيع قال : [٢]

رَمَتْ بخُيُوطِ النُّورِ كَهْرَبَةُ الفَجْـــرِ ونَمَّتْ بأَسْرَارِ النَّدَى شُفَةُ الزَّهْرِ [٣]
وسَارَتْ بأَنْفاسِ الخَمائِلِ نَسْمَـــةٌ بَلِيلَةُ مَهْوَى الذَّيْلِ ، عاطِرَةُ النَّشْـــرِ [٤]
فَقُمْ نَغْتَنِم صَفْوَ البُكُورِ ، فإِنَّهَـــا غَدَاةُ رُبِيعٍ زَهْرُها باسم الثغـــــر [٥]

---

(١) فى الأدب الحديث /عمر الدسوقى جـ١ ص ١٩٧ ، وانظر تطور الشعر العربى الحديث فى مصر د/ ماهر حسن فهمى ص ٧٢ ط ١٩٥٨ م مطبعة الرسالة والتراث النقدى قبـل مدرسة الجيل الجديد / عبد الحى دياب ص ٣٣.

(٢) ديوان محمود سامى البارودى شرح / على عبد المقصود عبد الرحيـم ص ١٩٣ ، ١٩٤ - الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م دار الجيل بيروت والبارودى رائد الشعر الحديث د/شوقى ضيف ص١١٣،١١٤ط١٩٦٤ دار المعارف بمصر .

(٣) نم بالسر : افشاه - الندى : قطرات الماء تظهر فوق الأزهار وقت الصباح

(٤) الأنفاس : جمع نفس - الخمائل : جمع خميلة وهى الشجر المجتمع الكثيف ، النسـمة : نفس الريح اذا كانت معتدله - مهوى الذيل : طرفه ، النشر : الرائحة.

(٥) اغتنم الشئ : أصابة غنيمة - الصفو: ضد الكدر - الغداه : أول النهار .

تَرَى بين سَطْحِ الأَرْضِ والجَوِّ نِسْبَةً ... تُشَاكِلُ ما بَيْنَ السَّحائِبِ والغُدْرِ (١)
فَفِي الجَوِّ هَتَّانٌ يَسِيلُ، وفي الثَّرَى ... سُيُولٌ تَرَامَى بَيْنَ أَوديةٍ غُزْرِ (٢)
غَمَامَانِ فَيَّاضَانِ : هَذَا بِأُفْقِهِ ... يَسِيرِ، وهذا في طِباقِ الثرَى يَسْرِي (٣)
وَقَدْ مَاجَتِ الأَغصانُ بين يد الصَّبا ... كَمَا رَفْرَفَتْ طَيْرٌ بِأَجْنِحَةٍ خُضْرِ (٤)
كَأَنَّ النَّدى فوقَ الشَّقِيقِ مَدامِعٌ ... وَتَجْوِلُ نَجْدٌ، أو جُمَانٌ على تِبْرِ (٥)
إِذا غَازَلَتْهَا لَمْعَةٌ ذَهَبِيَّةٌ ... مِنَ الشَّمْسِ رَفَّتْ كالشَّرَارِ عَلى الجَمْرِ (٦)
فَفِي كُلِّ مَرْعًى لَحْظَةٌ وَشْيُ دِيمَةٍ ... وَفِي كُلِّ مَرْمًى خَطْوَةٌ أَجْرَعٌ مُثْرِي (٧)
مُرُوجٌ جَلَاهَا الزَّهْرُ، حَتَّى كَأَنَّهَا ... سَمَاءٌ تُرَوِّقُ العَيْنَ بِالأَنْجُمِ الزُّهْرِ (٨)
كَأَنَّ صِحَافَ النورِ والطَّلُّ جَامِدٌ ... مَبَاسِمُ أَصْدَافٍ تَبَسَّمْنَ عَنْ دُرِّ (٩)

---

(١) النسبة : النسب والقرابة – تشاكل : تشابه ، السحائب : جمع سحابة – ،الغدر : جمع غدير .

(٢) سحاب هتان : كثير الهطل والانضباب – ترامى : اصلها تترامى : اى تطول وتمتد ، الأودية : جمع واد – عزر : كثير المطر

(٣) غمامان : مثنى غمام

(٤) ماحت : تحركت – الصبا : الريح تهب من بلاد العرب من جهة المشرق.

(٥) الشقيق : يريد شقائق النعمان وهو زهر معروف احمر اللون– المدامع: لدموع –تجول : تهتز– الجمان : اللؤلؤ

(٦) غازلتها : من المغازلة : وهى محادثة النساء واللهو معهن – اللمعة : اللمعان – رفت : برقت – الشرار : ما يتطاير من النار – الجمر : القطع الملتهبة من النار .

(٧) اللحظة : (هنا) النظرة – الوشى : نقش الثوب – الديمة : مطر يدوم فى سكون بلا رعد و لا برق – الأجرع : الرملة السهلة المستوية – المثرى : الكثير الخير .

(٨) المروج : جمع مرج : وهى ارض ذات نبات ومرعى – جلالها الزهر : زينها – تروق : تعجب – الزهر : النبرة المشرقة .

(٩) الصحاف : جمع صحفة : وهى اناء يؤكل فيه – النور : الزهر – الطل : المطر الخفيف – المباسم : جمع مبسم وهى الثغر – الأصداف / أغشية الدر – الدر : اللآلىء.

فى الأبيات السابقة يصف البارودى الطبيعة ومـــا يـــترقرق فـــى نسماتها من أنفاس الخمائل العطرة وما يجرى فى سمائها وأوديتـــها مـــن سيول ثرة ، والأغصان تموج وتهتز كلأنها تطير بأجنحة خضر، والنـدى يترقرق على الأزهار كأنه جمان على تبر، و تهبط عليه خيوط الشـــمس فيرف ويبرق كالشرار يتطاير فوق الجمر، أو كأنه مباسم أصداف تبســمن عن در وما يلبث أن يقول :

هَتَفْنَ فَأَطْرَبْنَ الْقُلُوبَ كَأَنَّمَـــــا تَعَلَّمْنَ أَلْحَانَ الصَّبَابَةِ من شعْـرى [1]
وَقَامَ عَلى الْجُدْرَانُ أَعْرَفُ لم يَـزَلْ يُبَدِّدُ احلامَ النِّيامِ وَلا يَـــــدْرى [2]
تَخَايَلَ فِى مَوْشِيَّةٍ عبقرِيـــــةٍ مُهَدَّلَةِ الأَرْدَانِ سَابِغَـــــــةِ الأَزْرِ [3]

لَهُ كِبْرَةٌ تَبْدُوْ عليه ، كَأَنَّـــــــه مَلِيكٌ عليهِ التَّاجُ يَنْظُرُ عن شَـزَرٍ [4]
فَسَارِعْ إِلى داعى الصَّبوحِ مَعَ النَّدَى لِتَجْنِىْ بِأَيْدَى اللَّهْوِ باكُورَةَ الْعُمْـرِ [5]
فَقَدْ نَسَمَتْ رِيحُ الشَّمالِ فَنَبَّهَـــتْ عُيُونَ الْقَمَارِى وَهْىَ فِى سِنَةِ الْفَجْرِ [6]

---

(١) هتفت الحمامة : سمعت وغنت – الصبابة : الشوق

(٢) اعرف : له عرف : وهو الذيك – يبدد : يفرق

(٣) تخايل : تكبر – موشية : منقوشة – عبقرية : تامة الحسن ، نسبة الى عبقر وهو ، فيمـا تزعم العرب ، موضع كثير الجن ينسبون اليه كل شئ تعجبوا من حســنه – مهدلــة : مسترسلة – الأردان : جمع ردن – وهى الكم – الأرز : جمع ازار وهو الثوب .

(٤) الكبرة – العظمة – تبدو : تظهر – نظر اليه شزرا : اى نظر فيه إعراض واحتقار

(٥) الصبوح : شراب الصباح – باكورة الشئ – أول ما يدر ك منه .

(٦) نسمت الريح – هبت لينة ضعيفة – القمارى : نوع من الحمام – السنة : النعـاس : أول النوم .

ويتحدث عن أدائه لفروض الدين ، ويلمع فى مخيلته يوم من أيامه البهيجة التى قضاها فى " روضة المنيل " على بساط طبيعتها الأنيق والقمارى تشدو من حوله والساقيات يدرن بكئوس الخمر على ندمائه ، وهو يرنو الى معشوقته التى فتنته وملكت عليه لبه ، وفى اثناء ذلك يشرب كأنه يريد ان يطفئ اللوعة الى دلعت نيرانها فى قلبه ، ويفيق من هذا الحلم الذى طاف به فينشد .

ألا ليت هاتيك الليالى وقد مضت تعود وذاك العيش يأتى على قدر
فذاك عصر قد مضى لسبيله وخلفنى ارعى الكواكب فى عصر[1]

وقال يصف الليلة العاصفة المطيرة فيجعلك تحس معه هزيم الرعد ، وعزف الريح ، وتواصل المطر وشدته ، وترى سوادها ووحشتها ، ويصف السحاب الممطر والبرق والرعد واثرها فى الإنسان والأرض قائلا [2]

(١) أرعى الكواكب : أراقبها

(٢) الأبيات : ديوان البارودى ص ٣٠٥ ، وانظر الادب الحديث / عمر الدسوقى ص١ ص ١٩٨ : ١٩٩

وَلَيْلَةٍ ذَات تَهْتَانٍ وَأَنْدِيَـــــــةٍ كَأَنَّمَا الْبَرْقُ فيها صَارِمٌ سَلَـــطُ (١)
لَفَّ الْغَمَامُ اقَاصِيها بِبُرْدَتِـــــــهِ وَانْهَلَّ فى حَجْرَيْتَهَا وَابِلٌ سَبِـــطُ (٢)
بَهْمَاءَ لَا يَهْتَدِى السَّارِى بِكَوْكَبِهَـــا مِنَ الْغَمَامِ وَلَا يَبْدُو بِها نَمَـــطُ (٣)
يَكَادُ يَجْهَلُ فِيها الْقَوْمُ أَمْرَهُـــــمُ لَوْلَا صَهِيلُ جيادِ الخيلِ واللَّغَـــطُ (٤)
يَطْفَى بِها الْبَرْقُ أَحْيَانًا فَيَزْجُـــرُهُ مُخْزَنْطِمٌ زَجِلٌ مِنْ رَعْدِهَا خَمِـــطُ (٥)

كَأَنَّمَا الْبَرْقُ سَوْطٌ ، والْحيَا نُجُبٌ يَلُوحُ فى جِسْمِها مِنْ مَسِّهِ حَبَطُ (٦)
كَأَنَّهُ صَارِمٌ يُرْفَضُّ مِنْ عَلَـــقٍ بِالأُفْقِ يُغْمَدُ أَحْيَانًا وَيُخْتَـــرَطُ (٧)
مَزَّقْتُ جِلْبَابَهَا بِالْخَيْلِ طَالِعَـــةً مِثْلَ الْحَمَائِمِ فى أَجْيَادِهَا الْعُلَطُ (٨)
وَقَدْ تَخَلَّلَ خَيْطُ النُّورِ ظُلْمَتَهَـــا كَمَا تَخَلَّلَ شَعْرَ اللِّمَّةِ الْوَخَطُ (٩)

---

(١) التهتان : مطر ضعيف دائم – اندية : جمع ندى وهو البلل – الصارم : السيف القاطع .

(٢) الغمام : السحاب – الاقاصى : الاطراف والنواحى – البردة : كساد ويلتحف به ، انهل : انصب وسال بشدة – حجرتاها : ناحيتاهما – وابل : مطر غزير شديد ، سبط : شديد متدارك .

(٣) بهماء : سواداء مظلمة – السارى : السائر ليلا – النمط : الطريق

(٤) الصهيل : صوت الفرس – جياد الخيل : كرامها – اللفظ : الجلبة والأصوات المختلطة

(٥) يطغى : يزيد ويشتد ، يزجره : يمنعه وينهاه – مخرنظم : غضبان ، زجل : عالى الصوت : فهو صوت الرعد ، خمط : غضوب ثائر .

(٦) السوط : الذى يجلد به كالمقرعة ونحوها ، الحيا : المطر – النجب : كرام الخيل – من مسه : بسبب مسه – الحبط : أثار السياط بالبدن

(٧) كأنه : أى البرق – صارم : سيف قاطع – يرفض : يسيل – العلق : الدم – يغمد : يدخل فى غمده – يخترط : يسل ويجرد من غمده .

(٨) الجلباب : القميص ويريد بتمزيق جلباب هذه الليله : انه سار فى ظلماتها فى سرعة ومضاء – الحمائم : جمع حمامه ، أجيادها: أعناقها ، العلط : علاط وهو من الحمامة طوقها فى صفحتى عنقها بسواد .

(٩) تخلل النور الظلمة : ثقبها وخالطها ، ويريد بخيط النور : بياض الصبح – اللمة : ما جاوز شحمة الأذن من شعر الرأس – الوخط : الشيب القليل .

كَأَنَّهَا وَصَدِيعُ الْفَجْرِ يَصْدَعُهَا ... مِنْ جَانِبٍ أَدْهَمُ قَدْ مَسَّهُ نَبَطُ (١)

وَمَرْبَعٍ لِنَسِيمِ الْفَجْرِ هَيْنَمَةٌ ... فِيهِ،وَلِلطَّيْرِ فِى أَرْجَائِهِ لَغَطُ (٢)

كَأَنَّمَا الْقَطْرُ دُرٌّ فِى جَوَانِبِهِ ... يَكَادُ مِنْ صَدَفِ الْأَزْهَارِ يُلْتَقَطُ (٣)

وَلِلنَّسِيمِ خِلَالَ الْبَنْتِ غَلْفَلَةٌ ... كَمَا تَغَلْغَلَ وَسْطَ اللِّمَّةِ الْمُشُطُ (٤)

وَالرِّيحُ تَمْحُو سُطُورًا ثُمَّ تُثْبِتُهَا ... فِى النَّهْرِ لَا صِحَّةٌ فِيهَا وَلَاغَلَطُ (٥)

و للسماء خيوط غير واهية ... تكاد تجمع بالإيادى فترتبط

كأنها و أكف الريح تضربها ... سلوك عقد تواهت ، فهى تنخرط (٦)

فى هذه القطعة أبيات يسمو فيها البارودى بإحساسه وبراعة تصويره، وادراكه للأمور الدقيقة وتصويره للخيل حينما سارت فى ظلمات تلك الليلة فى سرعة ومضاء كالحمائم فى خفتها وسرعة جريها وكأن هذه الليلة ونور الفجر يشقها من بعض جوانبها فرس ادهم فى بطنه بياض ويجعل الشاعر الندى وقطرات الماء المتناثرة فى صفائه ولمعانه وتجعل الأزهار المشتملة على الندى صدفا لذلك الدروغلافا ، ثم قال :

---

(١) كأنها : اى الليله ، يصدعها : يشقها – ادهم : فرس اسود – النبط : بياض فى بطن الفرس .

(٢) المربع : الموضع الذى يرتبع القوم فيه أى يقيمون به زمن الربيع ، الهينمة : صوت كأنه كلام خفى لا يفهم – الأرجاء : النواحى – اللغط : الجلبة

(٣) يريد بالقطر: قطرات الندى على اوراق الشجر والزهر – الدر : اللألئ – الصدف : المحار ، صدف الدرة : غشاؤها الذى يغطيها

(٤) النسيم : الريح الطيبة – خلال النبت : بينه ووسطه – غفلة : إمعان وسرعة ، تغلغل : تخلل ودخل ,

(٥) السطور : جمع سطر وهو الصف من الكتابة ، يشير الى عبث الريح بمياه الجداول

(٦) كأنها : الامطار – الأكف جمع الكف – السلوك : الخيوط – العقد : القلادة – تواهت : بليت وضعفت – تنخرط: تنتشر وتتفرق

أن هذا الندى يكاد يؤخذ ويلتقط من صدف الأزهـــار ، والنســيم يتغلغــل خلال النبات كما يتغلغل المشط وسط الشعر ويصف ما تحدثـــه الريــح بمياه الجداول والانهار فهى تثبت على سطح موجات خفيفة هادئة تشـــبه سطور الكتابة والريح محو سطورا ثم تثبيتها ، ثم يصف خيـــوط المطــر حين تضربها الريح فتتناثر بسلوك القلادة اذا بليت وانقطعـــت فتنـــاثرت حباتها على الأرض ولعلنا نذكر قصيدة " ابى هانئ الاندلسى " التى يقــول فى أولها :

ألؤلؤ دمع هذا الغيث أم فقـــــط ما كان أحسنه لو كان يلتقـــــــط

ومما لا شك فيه ان البارودى كان ادق من ابن هانئ معنى فيمـــا اورده بالبيت الأول من تشبيه القطر باللؤلؤ او الـــدر ، إذ ان البـــارودى جعله يكاد يلتقط ولم يتشكك فيه وما أدق وصفه لســـريان النســيم خـــلال البيت أو لوصف المطر وقد اتصل طرفاه بالسماء والأرض كأنما حياتـــه خيوط متينة غير واهية تكاد تجمع بالايدى فترتبط .

وللبارودى وصف للبحر الذى طالما لما ركبه غير انـــه يصـــور جانب الهول فيه والفزع فى راكبيه ، ولا يكاد يقف عند جمـــال مشـــهده وجلاله [1] وقد أكثر من وصف الليل بسرنديب وما يجرى فى سمائه مـــن كواكب ونجوم وصفا بديعا بمثل قوله [2]

(١) البارودى رائد الشعر الحديث د/ شوقى ضيف ص ١١٨

(٢) ديوان البارودى ص ٣٣١ ، ٣٣٢ وله قصيدة اخرى فى وصف البحر ص ٤٣٧ - ٤٣٩

أَرْعَى الْكَوَاكِبَ فى السَّمَاءِ كَأَنَّ لِـى ... عِنْدَ النُّجُومِ رَهِينَةً لَمْ تَدْفَـــع (١)
زُهْرٌ تَأَلَّقُ بِالْفَضَاءِ ، كَأَنَّهَـــا ... حَبَبٌ تَرَدَّدَ فِى غَدِيرٍ مُتْـــرَع (٢)
وَكَأَنَّهَا حَوْلَ الْمَجَرِّ حَمَائِـــمٌ ... بِيضٌ عَكَفْنَ عَلَى جَوَانِبِ مَشْرَعِ (٣)
وَتَرَى الثُّرَيَّا فِى السَّمَاءِ كَأَنَّهَـــا ... حَلَقَاتُ قُرْطٍ بِالْجُمَانِ مُرَصَّـــع (٤)
بَيْضَاءُ نَاصِعَةٌ كَبَيْضِ نَعَامَـــةٍ ... فِى جَوْفِ أَدْحِيٍّ بِأَرْضٍ بَلْقَـــعِ (٥)

وَكَأَنَّهَا أُكَرٌ تَوَقَّدَ نُورَهَـــا ... بِالْكَهْرَبَاءِ فِى سَمَاوَةِ مَصْنَـــع (٦)
وَاللَّيْلُ مَرْهُوبُ الْحَمِيَّةِ قَائِـــمٌ ... فِى مِسْحِهِ ، كَالرَّاهِبِ الْمُتَلَفِّـــع (٧)
مُتَوَشِّحٌ بِالنَّيِّرَاتِ ، كَبَاسِـــلٍ ... مِنْ نَسْلِ حَـامٍ ، بِاللُّجَيْنِ مُـدَرَّع (٨)
حَسِبَ النُّجُومَ تَخَلَّقَتْ عَنْ أَمْـرِهِ ... فوحى لَهُنَّ مِنَ الْهِلَالِ بِإِصْبَـعِ

وقال فى مناجاة الكواكب :

يَا كَوْكَبَ الصُّبْحِ مَتَى يَنْقَضِـــى ... عُمْرُ الدُّجَى ؟ يَا كَوْكَبَ الصُّبْـحِ
قَدْ حصن اللَّيْلُ أَبْوَابَـــهُ ... فَاتْلُ عَلَيْهِ سُورَةَ الْفَتْـــحِ

---

(١) أرعى الكواكب : أراقبها – الرهينة : الرهن

(٢) زهر : لامعه – تألق : تتألق –حبب : الماء – تردد : اضطرب وتحرك – الغدير : القطعه من الماء يغادرها السيل مترع : مملوء

(٣) المجر : المجرة : مجموعة من النجوم – حمائم : جمع حمامة – المشرع : المراد به الغدير والنهر

(٤) الجمان : اللؤلؤ

(٥) الأدجى : الموضع الذى تبيض فيه النعامة وتفرخ – ارض بلقع : قفر لا شئ فيها ؟

(٦) اكر : جمع اكرة : وهى الكرة – سماوة : مصنع : سقف قصر العظيم

(٧) مرهوب : مخوف – الحمية : الانفة والاستكبار – المسح : ثوب اسود يلبسه الرهبان

(٨) النيرات : النجوم

إِنِّى أَرَى أَنْجُمَهُ قَدْ وَنَتْ فَمَالَهَا أَيْدٌ عَلَى السَّبْحِ
وَقَدْ بَدَا ذُو ذَنَبٍ طَالِعاً كأنه سنبلة القمح[1]

وقال فى وصف السحاب

سَارِيَةٌ خَفَّاقَةُ الْجَنَاحِ تُواصِلُ الْغَدْوَ بِالرَّوَاحِ
تَبِيتُ فِي مَهْدٍ مِنَ الْبِطَاحِ بَاكِيَةً بِمَدْمَعٍ سَفَّاحِ
ضَحَّاكَةً كَثِيرَةَ النَّوَاحِ مَنْشُورَةً فى الأفقِ كَالْوِشَاحِ
تَحْمِلُهَا كَوَاهِلُ الرِّيَاحِ[2]

ففى هذه القطعة السابقة سمى " البارودى بإحساسه وبراعة تصويره وإدراكه للأمور الدقيقة كوصفه السحاب وهو يتخلل السماء ، أو وصفه خيوط المطر وهى نازلة ، أو وصفة للنجوم والكواكب والمزروعات والطيور وهى تحوم على صفحة النهر وحركات الطيور والنحلة من زهرة لزهره ، كل هذا فى حساسية غريبة وشغف بالطبيعة وحب لها كأنه يعيش معها [3]

وبراعة البارودى لا تظهر فى وصفه للطبيعة فحسب بل تظهر فى كل ما حاول وصفه من مشاهد كمشاهد الحرب ، أو آثار كأهرامات مصر ، أو أشخاص كوصفه للتتار .

---

(١) ديوان البارودى ص١٠٥

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٠٤

(٣) الطبيعة بين المحافظين والمجددين فى الشعر العربية الحديث فى مصر د/ مفيدة إبراهيم على ص ٧٦ ، ٧٧ رسالة ماجستير

وصف المشاهد والمرئيات والبلاد التى رحل اليها :

" الحرب " رافد انساب فى موهبة البارودى فأغناها بالصور والعواطف والانفعال، فامتشاقه الحسام ليخوض المعارك فى كريت ، أو ليواجه الجيوش فى فجاج الأرض البلغارية والروسية ، أو ليلقى العدو منفردا فى معركة القصاصين قد اذكى شاعريته فأمدتنا بدوره الخالدة ، و" حائيه" البارودى و " داليتاه " فى وصف الحرب الروسية و " نونيته " فى وصف الحرب بجزيرة كريت مازالت كل قصيدة منها اعجوبة من عجائب الشعر العربى فى الوصف ولو سمعها ابو فراس لسجد لها سجدة الاجلال والإعجاب وقصائده الاخرى فى الحرب تدلنا على أن روحه وشاعريته كانتا تتجاوبان معه فى المعارك فتمنحه الأقباس التى لا تصدر الا عن الفرسان الصناديد وتظهر فروسيته حتى فى الهزيمة فلا يكون ألا آخر المنسحبين حين يكون الثبات امام العدو وتهورا وجنونا [1] .

ووصف الملاحم الحربية وصفا رائعا لا يكاد يترك فيه كبيرة ولا صغيره ، تسعفه فى ذلك عين باصرة تلتقط المشاهد وتبرزها فى أوضح صورة على شاكلة قوله فى حرب القرم وما دار فيها من وقائع بين الترك وبين الروس ومن معهم من أهل البلقان [2]

---

(١) محمود سامى البارودى شاعر النهضة د/ على الحديدى ص ٣٨٨ الطبعة الثانية مكتبه الأنجلو المصرية .

(٢) ديوان البارودى شرح / على عبد المقصود ص ١٣١ ، ١٣٢ وقالها هو فى حرب الروس مع الدولة العثمانية سنة ١٢٩٣هـ - ١٨٧٧م وارسل بها إلى الاستاذ الشيخ حسين المرصفى "

أَدُورَ بِعَيْنَيْ لا أدرى غَيْرَ أُمَّـــةٍ منَ الرُّوسِ بالْبلْقَانِ يُخْطِئُهَا الْعَـدُّ (١)

جَوَاثٍ عَلَى هَامِ الْجِبالِ لِغِـــارَةٍ يَطِيرُ بِها ضَوْءُ الصَبَاح اذاَ يبَـدُو (٢)

إِذاَ نَحْنُ سِرْناَ صَرَّحَ الشَّرُّ باسْمِـــهِ وَصَاحَ الْقَناَ بالْمَوْتِ واسْتَقْتَلَ الْجُنْدُ (٣)

فَأَنْتَ تَرَى بيْنَ الْفَرِيقَيْنِ كَبَّـــةً يُحَدِّثُ فيها نَفْسَهُ الْبَطَلُ الْجَعْـدُ (٤)

عَلَى الأَرْضِ مِنْها بالدِّماءِ جَـــداوِلٌ وَفَوْقَ سَرَاةِ النَّجْمِ مِنْ نَفْعِهَا لِبْـــدُ

إِذَا اشْتَبَكُوا أَوْ راجَعُوا الزَّحْفَ خِلْتَهُمْ بُحُوراً تَوَالَى بَيْنَها الْجَزْر و الْمَـــدُّ

فَشُلَّهُمُ شُلَّ الْعِطَاشِ وَنتَّ بِهِـــا مُرَاغَمَةُ السُّقْيَا وَمَاطَلَهَا الْـــوِرْدُ(٥)

فَهُمْ بَيْنَ مَقْتُولٍ طَرِيحٍ وهَـــارِبٍ طَلِيحٍ وَمَأْسُورٍ يُجَاذِبُهُ الْقِـــدَّ(٦)

نَرُوحُ الَى الشُّورَى إِذَا أَقْبَلَ الدُّجَـى ونَغْدُو عَلَيْهِمْ بالْمَنَايَا إِذَا نَقْـــدُو (٧)

---

(١) البلقان : مجموعة من الجبال فى بلغاريا غرب البحر الأسود – يخطئها العد : كناية عن كثرتها .

(٢) جواث : جاثيات : جمع جاثية من جثا : إذا جلس على ركبته – هام الجبال : رؤوسها – يطير بها ضوء الصباح – أى يدفعها الى السرعة والانتشار.

(٣) صرح الشر باسمه : ظهر وبان – صاح : صوت – القنا : الرماح – استقتل : استمات ولم يبـال الموت

(٤) الكبة : الحملة فى الحرب – البطل : الشجاع – الجعد : الكريم الجواد

(٥) جداول : جمع جدول وهو النهر الصغير – سراة النجم : أعلاه – النقع الغبار – اللبد : ما يتلبد من شعر أو صوف

(٦) خلتهم : ظننتهم – توالى : تتابع – الجزر : انخفاض الماء – والمد : ضد الجزر وهـو ارتفـاع الماء .

(٧) نشلهم : نطردهم – مراغمه : مباعدة – الورد : ورود الماء

وَنقْع كَلَجّ البحرِ خُضْتُ غِمَـــارَهُ ولاَ مَعْقِلٌ إِلاّ الْمَنَاصِلُ وَالْجُـــــرْدُ (١)
صَيرَتْ لَهُ وَالْمَوْتُ يَحْمَرُ تَـــارَةً وَيَنْفَلُ طَوْراً فى الْعَجَاج فَنَسْـــوَدُّ(٢)
فَمَا كُنْتُ إِلاّ اللَّيْثَ أَنْهَضَهُ الطّـــوَى ومَا كُنْتُ إِلاّ السَّيْفَ فَارَقَهُ الْغِمْـــدُ (٣)
صَنُولٌ وَلِلأَبْطَالِ هَمْسٌ مِنَ الْونَـــى ضَرُوبٌ وَقَلْبُ الْقِرْنِ فى صَدْرِهِ يَعْدُو (٤)
فما مُهْجَةٌ إِلاّ وَرُمْحِي ضَمِيرُهـــا ولاَ لَيَّةٌ إِلاّ وَسَيْفِي لَهَا عِقْـــــدُ (٥)

وواضح وَصْفُه البارع لميدان الحرب وما يقوم على حافتيه مـــن الجيوش المتقاتلة ، وهى لا تتزاحف فى ساحات مستوية ، بل تتزاحف من جبال الى وديان ومن وديان الى جبال فى أمواج متلاطمة كأنـــها امـــواج البحار ودماء القتلى تسير جداول وانهاراً . ويدخل الليل بجحافله، وتُلقـــى بسدوله الكثيفة ، وينتهز القادة الفرصة للتشاور حتى اذا أطلـــت أضـــواء الفجر عاد التزاحف وانتشر النقع فملأ الآفاق . ويـــترامى الفرســـان فـــى المعارك حتى اذا حمى وطيس الحرب اندفع البارودى الفارس المصـــرى الضخم عريض الأكتاف وكأنه الأسد الضـــارى يســـقط علـــى فرائســـه فيهصرها هصراً أو كأنه الإعصار العاصف يقصف كل ما يلقاه قصفاً (٦)

---

(١) طلح : متعب – القد : القيد

(٢) الرواح : الرجوع فى المساء – العدو : الخروج مع الصباح الباكر .

(٣) النقع : غبار الحرب – المناصل : السيوف –الجرد : الخيل الكريمة .

(٤) ينفل : يدخل – العجاج : الغبار الدخان

(٥) الطوى : الجوع – غمد السيف : حفنه وغلافه

(٦) البارودى رائد الشعر الحديث – د/ شوقى ضيف ص ١٠٨ – ١٠٩

وحينما اعلنت روسيا فى سنة ١٨٧٧ م الحرب على و تركيا قد ارسلت مصر جيشا لمعاونه الخليفة العثمانى فى هذه الحرب ، وكان البارودى من قواد هذا الجيش ، ولكن الحرب انتهت بهزيمة تركيا وقد وصف البارودى بعض المعارك التى خاضها فى تلك الحروب ، ووصف ساحة القتال واهل البلاد التى وقعت فيها المعارك [١] ومما قاله فى وصف تلك الحرب من قصيده طويلة [٢] :

(١) نوابغ الفكر العربى – محمود سامى البارودى – بقلم عمر الدسوقى ص ١٠١ الطبعة الرابعة دار المعارف .

(٢) ديوان البارودى شرح / على عبد المقصود ص ٩٥ – ٩٧

وَأَصْبَحْتُ فى أَرْضٍ يَحَارُ بها القَطَا ... وَتَرْهَبُها الْجِنَّانُ وَهْىَ سَوارِحُ (١)

بَعِيدَةُ أَقْطَارِ الدِّيَامِيمِ ، لَوْعَدا ... سُلَيْكٌ بها شَأْواً قَضَى وَهْوَ رازِح (٢)

تَصِيحُ لها الْأَصْداءُ فى غَسَقِ الدُّجَى ... صِيَاحَ الثَّكَالَى هَيَّجَتْهَا النَّوائِحُ (٣)

تَرَدَّتْ بِسَمُّورِ الْغَمَامِ جِيالُها ... وَمَاجَتْ بتَيَّارِ السُّيُولِ الْبَطَائِحُ (٤)

فأَنْجَادُها لِلْكاسِراتِ مَعَاقِلٌ ... و أَغْوارُها لِلْعاسِلاتِ مَسَارِحُ (٥)

مَهالِكُ يَنْسَى الْمَرْءُ فيها خَلِيلَهُ ... وَيَنْدَرُ عَنْ سَوْمِ الْعُلَا مَنْ يُنافِحُ (٦)

فَلَا جَوَّ إِلَّا سَمْهَرِىٌّ وقاضِبٌ ... ولا أَرْضَ إِلَّا شَمَّرِىٌّ وسابِحُ (٧)

تَرانا بها كَالْأُسْدِ تَرْصُدُ غارَةً ... يَطِيرُ بها فَتْقٌ مِنَ الصُّبْحِ لامِحُ (٨)

مَدافِعُنا نَصْبُ الْعِدا وَمُشاتُنا ... قِيَامٌ تَلِيها الصَّافِناتُ الْقَوارِحُ (٩)

ثَلَاثَةُ أَصْنافٍ تَقِيهِنَّ ساقَةٌ ... صِيَالُ الْعِدَا، إِنْ صاحَ بِالشَّرِّ صائِحُ (١٠)

---

(١) القطا : نوع من الحمام يضرب المثل بهدايته – والجنان: جمع جان– سوارح : جمع سارحة من سوحت الإبل رعت نفسها ويراد بالسوارح هنا السائرة المطلقة .

(٢) اقطار – جمع قطر وهو الناحية – الديامين : جمع ديمومة وهى الأرض القفر أو الصحراء الواسعة – عدا : جرى – سليك : هو سليك بين سلكه لص فتاك عداء يضرب به المثل فى العدو – شأوا : شوطا– قضى : مات – رازح: سقط إعياء

(٣) الاصداء : جمع صدى وهو طائر يصر بالليل وهو ايضا رجع الصوت فى الخلاء – الفسق : ظلمة اول الليل – الثكالى : جمع ثكلى وهى المرأة التى فقدت وليدها

(٤) تردت : لبست الرداء – السمور : حيوان برى يتخذ من جلده فراء ثمينة وهو يشبه النمس ويكثر ببلاد الروس – البطائح : جمع بطيحة وهى مسيل الماء فيه دقاق الحصى.

(٥) الانجاد : جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض– الكاسرات : الطيور تكسر اجنحتها والمراد الجوارح من الطير – العاسلات : الذئاب– المسارح : جمع مسرح وهو المراعى

(٦) يندر هنا : بمعنى يسقط او يهلك – سوم العلا : طلب الرفعة – ينافح : يكافح ويدافع .

(٧) السمهرى : الرمح الصلب– القاضب : السيف القاطع – الشمرى : الشجاع المجرب – السامح : الفرس السريع العدو .

(٨) نرصد : نرقب وننتظر – فتق الصبح : انشقاق الفجر – لامح : لامع .

(٩) نصب العدا : أمامها – الصافنات : جمع الصافن وهو عن الخيل ما يقف على ثلاثة قوائم وقد أقام الرابعة على طرف الحافر وهى صفة محمودة للخيل. القوارح : جمع قارح وهو من الخيل ما بلغ الخامسة من العمر

(١٠) ساقة الجيش : مؤخرة – وصال على قرنه : سطا عليه وبطش به

تُغِيرُ على الأَبْطَالِ والصُّبْحُ باسِمُ ... وَتأوِى إِلَى الأَدْغَالِ واللَّيْلُ جانِحُ (١)

بَكَى صاحِبِي لَمَّا رَأَى الحَرْبَ أَقْبَلَتْ ... بِأبنائِها واليَوْمُ أَغْبَرُ كالِحُ (٢)

ولَمْ يَكُ مُبْكَاهُ لِخَوْفٍ وإِنَّمَا ... تَوَهَّمَ أَنِّى فى الكَرِيهَةِ طَانِحُ (٣)

فقَالَ اتَّئِدْ قَبْلَ الصِّيالِ ولا تَكُنْ ... لِنَفْسِكَ حَرْباً إِننِّى لك ناصِحُ (٤)

أَلَمْ تَرَ مَعْقُودَ الدُّخَانِ ، كَأَنَّمَا ... عَلَى عَاتِقِ الجَوْزَاءِ مِنهُ سَرائِحُ (٥)

وَقَدْ نَشَأَتْ لِلْحَرْبِ مُزْنَةُ قَسْطَلٍ ... لَهَا مستهل بِالْمَنِيَّةِ راشِحُ (٦)

فَلاَ رَأْىَ الاَّ أَنْ تَكُونَ بِنَجْوَةٍ ... فإِنَّكَ مَقْصُودُ المَكَانَةِ واضِحُ (٧)

فَقُلْتُ تَعَلَّمْ أَنَّمَا هِىَ خُطَّةٌ ... يَطُولُ بها مَجْدٌ وتُخْشَى فَضَائِحُ (٨)

فَمَا كُلُّ ما تَرْجُو من الأَمْرِ ناجِعٌ ... ولا كُلُّ ما تَخْشَى مِنَ الخَطْبِ فَادِحُ (٩)

فَقَدْ يَهْلِكُ الرِّعْدِيدُ فى عُقْرِ دارِهِ ... وَيَنْجُو مِنَ الحَتْفِ الكَمِيُّ المُشَايِحُ (١٠)

وَكُلُّ امْرِئٍ يَوْماً مُلاقٍ حِمَامَهُ ... وإِنْ عَارَ فى أَرْسَانِهِ وَهْوَ جامِحُ (١١)

---

(١) الكماة : الشجعان – البواسل : الابطال الشجعان – الجرد : جمع اجرد : وهو الفرس السباق – ضوابح : جمع ضابح وضبح الخيل صوت انفاسها عند العدو

(٢) تغير : تهجم – الأدغال : جمع دغل وهو الشجر الكثيف الملتف – جانح : مقبل

(٣) توهم : ظن – الكريهة : الحرب – طائح: هالك

(٤) اتئد: وتمهل – الصيال : السطو والبطش

(٥) العاتق : ما بين الكتف والعنق – الجوزاء : كوكب – السرائح : جمع سريحه : وهى القطعه من الثوب والمراد قطع الدخان والمعنى : ان دخان الحرب معقود فى الجو مرتفع، كأنما الجوزاء قد حملت على عاتقها قطعا منه.

(٦) المزنة : السحابة – والقطسل : الغبار – واستهل المطر : اشتد انصبابه – رشح الماء : خرج من مسام اناء او غيره ، يريد ان يقول : بأنه قد نشأ فى سماء ميدان الحرب من غبارها ما يشبه السحابة التى تصب الموت والعناء .

(٧) النجوة : ما ارتفع من الأرض والمراد المكان البعيد عن الخطر

(٨) تعلم : اعلم – الخطة : الشأن والحالة – المجد : العز والشرف

(٩) ناجع : نافع ذو اثر ظاهر – الخطب : النازلة – فادح : صعب وشاق

(١٠) الرعديد : الجبان – عقر داره : وسطها – الحتف : الموت – والكمى : الشجاع أو الفارس فى كامل عدته – المشايح: المقاتل

(١١) الحمام : الموت – عار الفرس : ذهب كأنه منفلت من صاحبه – الأرسان : جمع رسن وهو الحبل – جامح: مستعص – ، ومعنى البيت : ان الانسان يلاقى حتما ما قدر عليه من الموت وان فر من اسبابه فرار الفرس الجموح .

ولما نزل البارودى بمقاطعة أوكرانيا من روسيا فى " سرنسوف " على أحد روافد نهر دنيبر . وقد اشترك مع الروس فى الحرب اهل رومانيا وبلغاريا والصرب والجبل الأسود. وهو هنا يصف هذه البلاد ويصف رجال تلك الجيوش التى يحاربها فقال[1] من قصيدة طويلة يصف البلغار فى بلادهم :

(١) ديوان البارودى ص ١٣٦

بِلَادٌ بِهَا ما بِالْجَحِيمِ وإِنَّمَـــــا ... مَكَانَ اللَّظَى ثَلْجٌ بِهَا وجَلِيـــــدُ (١)

تَجَمَّعَتِ الْبُلْغَارُ والرُّومُ بَيْنَهَـــــا ... وزَاحَمَهَا التَّاتَارُ فَهْيَ حُشُـــودُ (٢)

إِذَا رَاطَنُوا بَعْضاً سَمِعْتَ لِصَوْتِهِمْ ... هَدِيداً تَكَادُ الْأَرْضُ مِنْهُ تَمِيـــدُ (٣)

قِباحُ النَّواصِي والْوُجُوهِ كَأَنَّهُـــمْ ... لِغَيْرِ أَبِي هَذَا الْأَنَامِ جُنُـــودُ (٤)

سَواسِيَةٌ ، لَيْسُوا بِنَسْلِ قَبِيلَـــةٍ ... فَتُعْرَفَ آبَاءٌ لَهُمْ وجُـــدُودُ (٥)

لَهُمْ صُوَرٌ لَيْسَتْ وُجُوهاً ، وإِنَّمَا ... تُنَاطُ إِلَيْهَا أَعْيُنٌ وخُـــدُودُ (٦)

يَخُورُونَ حَولِي كَالْعُجُولِ،وبَعْضُهُمْ ... يُهَجِّنُ لَحْنَ الْقَوْلِ حِينَ يُجِيـــدُ (٧)

أَدُورُ بِعَينِي لا أَرَى بَيْنَهُـــمْ فَتىً ... يَرُودُ مَعِي فى الْقَوْلِ حَيْثُ أَرُودُ (٨)

فَلَا أَنَا مِنْهُمْ مُسْتَفِيدٌ غَرِيبَـــةً ... وَلَا أَنَا فِيهِمْ ما أَقَمْتُ مُفِيـــدُ

فَمَنْ لِي بِأَيَّامٍ مَضَتْ قَبْلَ هَـــذِهِ ... بِمِصْرَ ؟ وعَيْشِي لَوْ يَدُومُ حَمِيدُ (٩)

---

(١) الجحيم : النار الشديدة التأجج- اللظى : النار او لهبها

(٢) حشود : جماعات

(٣) الرطانه : الكلام باللغة الأعجمية- هديدا : دويا- تميد : تتحرك

(٤) النواصى : المراد بها هنا الجباه : جمع جبهة- الأنام : الناس- ابو الأنام : آدم عليه السلام - الجنود : جمع جند وهم الانصار والاعوان

(٥) سواسية : جمع سواء : والمعنى متساوون فى القبح- يرميهم بالقبح ، وبأنهم اخلاط من قبائل واجناس شتى

(٦) تناط : تعلق ،يقول : ان وجوههم لا تشبه وجوه الناس وانما هى صور غريبة علقت بها عيونهم وخدودهم

(٧) يخورون : يصيحون - يهجن : يقبح - لحن القول : معناه وفحواه

(٨) يرود: يجئ ويذهب ويتردد

(٩) حميد : محمود غير مذموم

فهو يصف رطانتهم وعجمة السنتهم وقبح وجوههم ورعو ســـهم حتى كأنهم ليسوا من البشر وان وجوههم متشابهه لا تســـتطيع التفريـــق بينها، بل لا يريد ان يعترف بأن لهم وجوها وانما هى صور وضعت فيـها اعين وخدود ، ويصيحون حوله كالعجول واذا حـــاول بعضـــهم النطـــق بالعربية افسدها [1] ويعد تصوير الاشخاص من الموضوعات النادرة التـــى مهر فيها قلة من فحول الشعر العربى كابن الرومى .

ومن قوله يصب حرب أقريطش (كريت) [2] سنة ١٢٨٢هـــــ- ١٨٦٥ م حين خرج سكانها عن الطاعه .

---

(١) فى الأدب الحديث / عمر الدسوقى جـ١ ص ٢٠٣

(٢) الديوان ص ٥٥٧، ٥٥٨ وجزيرة " أقريطش " تسمى " كريت " و كريد " وهى جزيرة مشهورة بالبحر الابيض المتوسط تقع فى الجنوب الشرقى من بلاد اليونان .

فِي كلِّ مَرْبَأَةٍ وكُـــلِّ ثَنِيَّـــةٍ ... تَهْدَارُ سَامِرَةٍ ، وَعُزْفُ قِيـــانِ (١)
تَسْتَنُّ عَادِيَةٌ ، وَيَصْهَلُ أَجْـــرَدٌ ... وَتَصِيحُ أَحْرَاسٌ وَيَهْتِفُ عَانِـــى (٢)
قَوْمٌ أَبَى الشَّيْطَـــانُ إِلاَّ نَزْغَـــهُمْ ... فَتَسَلَّلُوا مِنْ طَاعَةِ السُّلْطَـــانِ (٣)
مَلأُوا الْفَضَاءَ ،فَمَا يَبِينُ لِنَا ظِـــرٍ ... غَيْرُ الْتِمَاعِ الْبِيضِ وَالْخُرْصَانِ (٤)
فَالْبَدْرُ أَكْدَرُ وَالسَّمَـــاءُ مَرِيضَـــةٌ ... وَالْبَحْرُ أَشْكَلُ ، وَالرِّمَاحُ دَوَانِى (٥)
وَالْخَيْلُ وَاقِفَةٌ عَلَى أَرْسَانِهَـــا ... لِطِرَادِ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ ، وَرِهَـــانِ (٦)
وَضَعُوا السِّلاَحَ إِلَى الصَّبَاحِ ، وَأَقْبَلُوا ... يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسُنِ النِّيـــرَانِ
حتَّى إِذَا مَا الصُّبْحُ أَسْفَرَ ، وَارْتَمَـــتْ ... عَيْنَاىَ بَيْنَ رُبًا ، وَبَيْنَ مَحَانِى (٧)
فَإِذَا الْجِبَالُ أَسِنَّةٌ وَإِذَا الْوِهَـــا ... دُ أَعِنَّةٌ ، وَالْمَاءُ أَحْمَرُ قَانِـــى (٨)
فَتَوَجَّسَتْ فَرَطُ الرِّكَابِ ولَمْ تَكُـــنْ ... لِتَهَابَ فَامْتَنَعَتْ عَلَى الْأَرْسَانِ (٩)
فَزِعَتْ ، فَرَجَّعَتِ الْحَنِينَ ، وَإِنَّمَـــا ... تَحْنَانُهَا شَجَنٌ مِنَ الْأَشْجَـــانِ (١٠)
ذَكَّرَتْ مَوَارِدَهَا بِمِصْرَ - وَأَيْنَ مِنْ ... مَاءِ بِمِصْرَ مَنَازِلُ الرُّومَانِ ؟(١١)

---

(١) المربأة : المكان المرتفع العالى : (مكان المراقب)- الثنية : الطريق فى الجبل – تـــهدار الحمام : هديره – القيان : جمع قينة وهى المرأة المملوكة المغنية .

(٢) – تستن : تجرى فى نشاط – العادية : الخيل المغيرة – اجرد : قصير الشعر – الاحراس: الحراس: جمع حارس

(٣) نزعهم : افسادهم – تسللوا : خرجوا

(٤) البيض : السيوف – الخرصان : نصال الرماح .

(٥) بحرا شكل اى خالطت مياهه حمرة الدماء – دوان : مع دان : اسم فاعل من دنا الشئ: أى قرب

(٦) الأرسان : الأعنة والمقاود – طارده : دافعه وزاحمه – الكريهه : الحرب .

(٧) اسفر : وضح واشرق – المحان : جمع محنية وهى من الوادى : منحناه ومنعطفه.

(٨) الوهاد : جمع وهدة وهى الأرض المنخفضة – قان : شديد الحمرة

(٩) توجست : تهيب وخافت – الفرط : السابق المتقدم – الركاب: الابل او المطايا – الارسان: جمع رسن : وهو العنان والزمام

(١٠) التحتان : الحنين الشديد – الشجن : الهم والحزن والحاجة

(١١) منازل الرومان : جزيرة " كريت " فقد حكمها الرومان

وكان البارودى - كما نعلم- فارسا شجاعا خاض غمرات الحرب مرات ، وكان محبا للخيل الجياد شأن الفرسان الشجعان ، فلا يدع اذا رأيناه يصف الفرس ويصف السيف ، وهما حليفاه فى المعركة، فيقول من قصيدة طويلة يصف فيها الفرس والسيف (١)

فَقَدْ أَسِيرُ أَمَامَ الْقَوْمِ ضَاحِيَةً ... وَالْجَوُّ بِالْبَاتِرَاتِ الْبِيضِ مُشْتَعِلُ (٢)
بِكُلِّ أَشْقَرَ قَدْ زَانَتْ قَوَائِمَهُ ... حُجُولُهُ غَيْرَ يُمْنَى زَانَهَا الْعَطَلُ (٣)
كَأَنَّهُ خَاضَ نَهْرَ الصُّبْحِ، فَانْتَبَذَتْ ... يُمْنَاهُ وَانْبَثَّ فِى أَعْطَافِهِ الطَّفَلُ (٤)
زُرْقٌ حَوَافِرُهُ ، سُودٌ نَوَاظِرُهُ ... خُضْرٌ جَحَافِلُهُ فِى خَلْقِهِ مَيَلُ (٥)
كَأَنَّ فِى حَلْقِهِ نَاقُوسَ رَاهِبَةٍ ... بَاتَتْ تُحَرِّكُهُ أَوْ رَاعِدٌ زَجِلُ (٦)

---

(١) الديوان ص ٤٣١ ، ٤٣٢

(٢) ضاحية : علانية – والجو : ما بين السماء والأرض والجمع جواء بكسر الجيم والباترات : جمع باتر وهو السيف القاطع – مشتعل : ملتهب

(٣) بكل اشقر : بكل فرس اشقر – والاشقر : من الحيوان ما كان لونه احمر – قوائمه : يداه وزجلاه – الحجول : جمع حجل ، وهو البياض فى قائمة الفرس – العطل : خلال التحجيل والمراد ان يمنى هذا الفرس خالية من حلية التحجيل .

(٤) انتبذت : اعتزلت – انبث: تفرق وانتشر – اعطافه: جوانبه – طفل الغداة : الوقت بعيد طلوع الشمس – طفل العشى : قبيل غروبها

(٥) الجحافل : جمع جحفلة : وهى لذوات الحافر من الخيل والبغال والحمير : كالشفة من الانسان ويراد بالميل هنا : ما يعرف فى الصافنات الجياد من التمايل والتبختر

(٦) الناقوس : الجرس الكبير – زجل : صائح صاخب.

يَمُرُّ بِالْوَحْشِ صَرْعَى فِي مَكَامِنِهَا ... فَمَا تَبِينُ لَهُ شَدًّا ، فَتَنْخَذِلُ (١)

يَرَى الإِشَارَةَ فِي وَحْيٍ فَيَفْهَمُهَا ... وَيَسْمَعُ الزَّجْرَ مِن بُعْدٍ فَيمْتَثِلُ

لا يَمْلِكُ النَّظْرَةَ الْعَجْلَاءَ صَاحِبُهَا ... حَتَّى تَمُرَّ بِعِطْفَيْهِ فَتَحْتَبِلُ (٢)

إِنْ مَرَّ بِالْقَوْمِ حَلَّوا عَقْدَ حَبْوَتِهِمْ ... وَاسْتَشْرَفَتْ نَحْوَهُ الْأَلْبَابُ وَالْمُقَلُ (٣)

تَقُودُهُ بِنْتُ خَمْسٍ ، فَهْوَ يَتْبَعُهَا ... وَيَسْتَشِيطُ إِذَا هَاهَى بِهِ الرَّجُلُ (٤)

أَمْضَى بِهِ الْهَوْلَ مِقْدَاماً وَيَصْحَبُنِي ... مَاضِي الْعِزَارِ إِذَا مَا اسْتَفْحَلَ الْوَهَلُ (٥)

يَمُرُّ بِالْهَامِ مَرَّ الْبَرْقِ فِي عَجَلٍ ... وَقْتَ الضِّرَابِ ، وَلَمْ يَعْلَقْ بِهِ بَلَلُ (٦)

تَرَى الرِّجَالَ وُقُوفاً بَعْدَ فَتْكَتِهِ ... بِهِمْ يُظَنُّونَ أَحْيَاءً وَقَدْ قُتِلُوا

كَأَنَّهُ شُعْلَةٌ فِي الْكَفِّ قَائِمَةٌ ... تَهْفُو بِهَا الرِّيحُ أَحْيَاناً وَتَعْتَدِلُ

لَوْلَا الدِّمَاءُ الَّتِي يُسْقَى بِهَا نَهِلاً ... لَكَادَ مِنْ شِدَّةِ اللَّأْلَاءِ يَشْتَعِلُ (٧)

يَفُلُّ مَا بَقِيَتْ فِي الْكَفِّ قَبْضَتُهُ ... كُلَّ الْحَدِيدِ وَلَمْ يَثْأَرْ بِهِ فَلَلُ (٨)

ورأى البارودى فى جزيرة " كريت " غيضة مليفة الأشجار احتلها فى "قندية" أيام الحملة التى ارسلها اسماعيل لمعاونة الخليفة فى قمع الثوار فقال يصف هذه الغيضة (٩)

---

(١) الوحش : ما لا يستأنس من دواب البر وحيوانه – صرعى : جمع صريع – مكانها : مخابئها

(٢) العجلى : السريعة – عطفاه : جانباه – تحتبل : تصاد – احتبل الصائد الصيد : نصب له الحبال وهى المصيدة

(٣) عقد حبوتهم : اى جلس او قعد – المقل : العيون ؟

(٤) تقوده : تمشى امامه اخذة بمقودة – استشاط فى الحرب اى استقتل – هاهى به : نهره او زجره

(٥) الهول : المخافة – ماض : حاد – الغرار : حد السيف – استفحل : تفاقم – الوهل : الخوف

(٦) الهام (هنا) رءوس المحاربين – الضراب: : الجلاد والقتال – بلل : المراد به هنا : دم القتلى والحرجى : كناية عن سرعة قطعة .

(٧) يسقى بها نهلا : يسقى بها سقيا مرويا – اللألاء ضوء فيه لمعان واضطراب وحركة.

(٨) يفل : يثلم ويكسر – وقبضته : قدر ما يقتض عليه منه – فلل : اثلام حد السيف وتكسره

(٩) الديوان ص ٢٩١ ، والغيضة : الأجمة وهى مجتمع الشجر فى مغيض الماء و (قندية) مدينة من مدن جزيرة (اقريطش) وهى جزيرة (كريت) المشهور بالبحر المتوسط

وَمُرْتَبَعٍ لُذْنَابِهِ غِبَّ سُحْـــــرَةٍ ... وَلِلصُّبْحِ أَنْفَاسٌ تَزِيدُ وَتَنْقُـــصُ (١)

وَقَدْ مَالَ لِلْغَرْبِ الْهِلَالُ ، كَأَنَّـــهُ ... بِمِنْقَارِهِ عَنْ حَبَّةِ النَّجْمِ يَفْحَـــصُ (٢)

رَقِيقِ حَوَاشِي الْبَنَتِ ، أَمَّا غُصُونُـهُ ... فَرَيَّا ، وَأَمَّا زَهْرُهُ فَمُنَصَّـــــصُ (٣)

إِذَا لَاعَبَتْهُ أَفْنَانَهُ الرِّيحُ خِلْتَهَـــــا ... سَلَاسِلَ تُلْوَى أَوْ غَدَائِرَ تُعْقَـــصُ (٤)

كَأَنَّ صِحَافَ الزَّهْرِ وَالطَّلُّ ذَائِـــبٌ ... عُيُونٌ يَسِيلُ الدَّمْعُ مِنْهَا وَتَشْخَـصُ (٥)

يَكَادُ نَسِيمُ الْفَجْرِ إِنْ مَرَّ سُحْـــرَةً ... بِسَاحَتِهِ الشَّجْرَاءِ لَا يَتَخَلَّـــصُ (٦)

كَأَنَّ شُعَاعَ الشَّمْسِ وَالرِّيحُ رَهْـــوَةٌ ... إِذَا رُدَّ فِيهِ سَارِقٌ يَتَرَبَّـــــصُ (٧)

يَمُدُّ يَدًا دُونَ الثِّمَارِ ، كَأَنَّمَـــــا ... يُحَاوِلُ مِنْهَا غَايَةً ، ثُمَّ يَنْكُـــصُ (٨)

عَطَفْنَا إِلَيْهِ الْخَيْلَ فَلَّ مَسِيـــــرَةٍ ... وَلِلْقَوْمِ طَرْفٌ مِنْ أَذَى السُّهْدِ أَخْوَصُ (٩)

فَمَا أَبْصَرَتْهُ الْخَيْلُ حَتَّى تَمَطَّـــرَتْ ... بِفُرْسَانِهَا وَاسْتَتْلَعَتْ كَيْفَ تَخْلُـصُ (١٠)

---

(١) المرتبع : المكان الذى يرتبع فيه القوم ، اى يقيمون فيه ، غب : بعد ، السحرة : آخـر الليل – وزيادة انفاس الصبح ونقصانها : كناية عن طلوع الفجر وتردده بين ظلمة الليـل وضياء النهار.

(٢) حبة النجم : النجم الشبية بالحبة ، يفحص : يبحث

(٣) حواشى البنت : جوانبه واطرافه ، ريا : مؤنث زيان صفة من الرى والمراد انها غضة ناضرة – منصص : ظاهر مرفوع بعضه فوق بعض

(٤) خلتها : ظننتها – الغدائر : جمع غديرة وهى الصفيرة من الشعر اذا كانت مرسلة غـير ملوية ولا معقوصه – تعقص : تضفر وتلوى

(٥) الصحاف : آنية الطعام التى يؤكل فيها – الطل : المطر الخفيـــف تشـخص : تنفتـح ولا تطرف.

(٦) ساحته : ناحيته – الشجراء : الكثير الشجر

(٧) الرهو : الرقيق ، رد فيه : رجع – اى الشعاع يتربص : ينتظر .

(٨) ينكص : يحجم ويرجع ويتأخر

(٩) عطفنا اليه الخيل : املنا ها اليها – اى المرتبع – فل مسيرة : منفـلة متعبة من السير – الطرف : العين – اخوص : ضيق غائر ضعيف .

(١٠) تمطرت : اسرعت وجرت – استتلعت : اسرعت وحاولت مد اعناقها .

مَدَى لَحْظَةٍ حَتَّى أَتَتْهُ وَمَـــاؤُهُ عَلَى زَهْرِهِ ، والظِّلُّ لاَ يَتَقَلَّـــصُ (١)
فَمَدَّتْ بِهِ الأَعْنَاقَ تعطر وتختلـــى نِهَايًا ، وَتُغْلِي فى النَّبَاتِ وَتُرْخِصُ (٢)
أَقَمْنَا بِهِ شَمْسَ النَّهَارِ وَكُلُّنَـــا عَلَى ما بِهِ مِنْ شِدَّةِ الْعُجْبِ يَحْرِصُ
فَلَمَّا اسْتَرَدَّ الشَّمْسَ جُنْحٌ مِنَ الدُّجَى وَأَعْرَضَ تَيْهُورٌ مِنَ اللَّيْلِ أَعْوَصُ (٣)

دَعَوْنَا بِأَسْمَاءِ الْجِيَادِ فَأَقْبَلَـــتْ لَوَ اعِبَ فى أَرْسَانِها تَتَرَقَّـــصُ (٤)
وَقُمْنَا وَكُلٌّ بَعْدَ مَا كَانَ لاَهِيَـــا بِأَظْلاَلِهِ كُرْهَ الرَّحِيلِ مُنَغِّـــصُ
فَلِلَّهِ عَيْنَا مَنْ رَأَى مِثْلَ حُسْنِـــهِ وَمَا أَنَا فيما قُلْتُهُ أَتَخَـــرَّصُ (٥)
ظَفِرْتُ بِهِ فِى حِقْبَةٍ ، فَقَنَصْتُـــهُ عَلَى غِرَّةِ الأَيَّامِ واللَّهْوُ يُقْنَـــصُ

ويقول البارودى : اننا لجـأنا الى هذا المرتبع فى آخر الليل قبـل الصبح ، والفجر يكاد يطلع ، والدنيا تتردد بين النور والظلمة ، وهذا هـو ما قصده بقوله : " وللصبح انفاس تزيد وتنقص " وكان الهلال فـى آخـر الشهر ، وقد مال كأنه طائر يفحص بمنقاره عن النجم الذى يشبه الحبـة ، وكان من الطبيعى بعد ان شبه الهلال بطائر ان يشبه النجم بحبة . وكـانت

---

(١) مدى : غاية – اللحظة : النظرة – ماؤه على زهره : يريد انه اتتـه وقـت الصبـاح – يتقلص: ينزوى وينقبض.

(٢) به : بالمرتبع – تعطو : تتناول – تختلى : تقطع الخلى وتأكله : وهو النبـات الرطـب الرقيق – النهاب : جمع نهب وهو الغنيمة – واغلاؤها و ارخاصها – فى النبات : كناية عن تصرفها فيه .

(٣) استرد الشمس : اخفاها وعينها – اعرض : ظهر – التيهور : مـوج البحـر المرتفـع والمراد ظلمات الليل على التشبيه – اعوص : صعب شديد

(٤) ارسانها : جمع رسن وهو الحبل

(٥) لله عينا : تركيب يفيد المدح والتعجب والشئ يعظم قدره وشأنه اذا نسب الى الله مصدر الكمال والعظمة والجلال.

جوانب هذا المرتبع واطرافه رقيقه النبات غضـــه ، وغصونـــه نضـــرة زاهية، وزهره مرفوع بعضه فوق بعض ، واذا لاعبت الريح افنانه خلـت هذه الأفنان سلاسل تلوى ، او ذوائب من الشعر تضفر ، وكأن الزهر فيها يشبه الصحاف وفيها الندى ذائب ، وكأن هذه الصحاف وما بها من النـدى عيون مفتوحة تدمع ولا تطرف ، ولكثافة الأشـجار واشـتباكها يكـاد لا يتخلص منها نسيم السحر مع رقته ، وتسقط اشعة الشمس على غصـــون هذا المرتبع ، فتهزها الريح اللطيفة الهينة ، فتتحـــرك الاشـعة بتحـرك الغصون ، فتنفذ من خلالها مرة وتحجب أخرى ، كأنها لص يتردد بيـــن الإقدام والإحجام ، وهو لص يحاول ان يقطف الثمار فيمد اليها يـــده ثـم يرجعها ، واقلنا خيلنا الى هذا المرتبع ، ونحن متعبون من السير وعيـون الجند قد أزاها السهد والسهر حتى ضاقت وصغرت ، ومـــا ان ابصرتـه الخيل حتى أسرعت إليه مرحة ونشيطة ومـدت اعناقـها لـترى كيـف تخلص اليه وتغدو مسرعة عليه ، ووصلت اليه فى امد وجيز جدا قـــدره مدى لحظة ، شوقا منها اليه ، وماؤه على زهره اى كان ذلك قبل اشـراق الشمس وذهاب الندى ، ورأته شجرا عاليا دائم الظـل ، فمـدت اعناقـها تتناول فيه وتأكل العشب الرطب الرقيق ، وتنهيه نهبا، وتتصرف فيه كمـا تشاء ، وتتقلب فى نواحيه كما تريد[1] ثم يصـف إدبـار النـهار وراء إقبال الليل بظلماته وأهواله، ويقول : قمنا من ذلك المرتبع وكل واحد منـا مكدر بسبب كراهيته للرحيل ، ومغادرة هذا المكان الجميل ، بعدما كـان لاهيا فى ظلاله [2]

(١) وصف الطبيعة وتطوره فى الشعر العربى / محمد خلف الله وآخرون ص ١١٦ ، ١١٩

(٢) محمود سامى البارودى بقلم / عمر الدسوقى ص ٩١

واكتفى البارودى فى هذه القطعة كما رأيت بالوصف السريع ولكنه كان ماهرا بارعا فى ايراد التشبيهات الموضحه ، وهو وإن أفاد من خيالات مَنْ قبله إلا أنه ولدَ فيها وجدد ، فقد نظر فى قوله (كأن شعاع الشمس ... البيت) الى قول صفى الدين الحلى (والظل يسرق بين الروح خطوته) ونظر فى وصف ضوء الشمس الذى يروح ويجئ تبعا لاهتزاز الاغصان الى قول المتنبى فى وصف هذه الاشعة (دنانير تفر من البنان)، ولكنه كما رأينا قد ارتفع بالوصف الى طبقة كبار الشعراء السابقين ، واتى ببعض التشبيهات المبتكرة [1]

۞ وصف الآثار القديمة :

رأينا ان البارودى قد برع فى وصف الطبيعة بمناظرها المختلفة، ولكنه لأول مرة فى تاريخ الشعر المصرى نجد شاعرا يقف وقفة طويلة أمام الهرمين ويفرد لوصفهما قصيدة ، ولم يكن الشعراء قبله يهتمون بهما، وإنما يذكرونهما فى بيت أو شطر بيت على سبيل العظمة ، والآثار المصرية جزء من الطبيعة المصرية ، ووصفها دليل الإعجاب والحب والوطنية ، وقد مهد السبيل لشوقى وضرب له مثلا ، بل ان البارودى كان اقوى احساسا بمصر وطبيعتها من كثير من الشعراء الذين اتوا بعده والذين لا تكاد نعثر على بيت واحد فى شعرهم ينبئ عن حب لمصر وآثارها وطبيعتها [2] .

---

(١) وصف الطبيعة وتطوره فى الشعر العربى / محمد خلف الله ص ١١٩

(٢) محمود سامى البارودى بقلم : عمر الدسوقى ص ١٠٥

وقصيدته فى وصف الأهرامات وابى الهول مشهورة ، وهى خير مثال على ريشة الفنان المبدع ومقدرته الفنية العالية ، وخياله المحلق ، وإحساسه المرهف كل ذلك مكنه من ان يحلق فى مجال الوصف والتصوير مما يجعله ينفذ الى صميم الوجدان ويخلب الألباب [١].

يقول فى وصف هرمى مصر [٢]

سَلِ الْجِيزَةَ الْفَيْحَاءَ عَنْ هَرَمَيْ مِصْرِ ... لَعَلَّكَ تَدْرِى غَيْبَ مَا لَمْ تَكُنْ تَدْرِى (٣)

بِنَاءَانِ رَدَّا صَوْلَةَ الدَّهْرِ عَنْهُمَا ... وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ يَغْلِبَا صَوْلَةَ الدَّهْرِ (٤)

---

(١) انظر / تطور القصيدة الغنائية فى الشعر العربى الحديث د/ حسن أحمد الكبير ص ٥٧ طبعه دار الفكر العربى .

(٢) ديوان البارودى ص ٢٢٠ - ٢٢٢

(٣) الفيحاء : الواسعة - وهرما مصر العظيمان على مقربة من مدينة الجيزة فى جنوبيها الغربى ويعدان من عجائب الدنيا ، ويريد بالشطر الثانى الوقوف على ما غاب من اخبار الفراعنة واحوالهم.

(٤) الصولة : السطوة والبطش .

أَقَامَا عَلَى رَغْمِ الْخُطُوبِ لِيُشْهَدَا ... لِبَانِيهِمَا بَيْنَ الْبَرِيَّةِ بِالْفَخْرِ (١)

فَكَمْ أُمَمٍ فِى الدَّهْرِ بَادَتْ ، وَأَعْصُرٍ ... خَلَتْ وَهُمَا أُعْجُوبَةُ الْعَيْنِ والْفِكْرِ (٢)

تَلُوحُ لِآثَارِ الْعُقُولِ عَلَيْهِمَا ... أَسَاطِيرُ لَا تَنْفَكُّ تُتْلَى إِلَى الْحَشْرِ (٣)

رُمُوزٌ لَوِ اسْتَطْلَعْتَ مَكْنُونَ سِرِّهَا ... لَأَبْصَرْتَ مَجْمُوعَ الْخَلَائِقِ فِى سَطْرِ (٤)

فَمَا مِنْ بِنَاءٍ كَانَ ، أَوْ هُوَ كَائِنٌ ... يُدَانِيهِمَا عِنْدَ التَّأَمُّلِ وَالْخُبْرِ (٥)

يُقَصِّرُ حُسْناً عَنْهُمَا "صَرْحُ بَابِلٍ" ... وَيَعْتَرِفُ "الْإِيوَانُ" بِالْعَجْزِ وَالْبَهْرِ (٦)

فَلَوْ أَنَّ "هَارُوتَ" انْتَحَى مَرْصَدَيْهِمَا ... لَأَلْقَى مَقَالِيدَ الْكَهَانَةِ وَالسِّحْرِ (٧)

كَأَنَّهُمَا ثَدْيَانِ فَاضَا بِدِرَّةٍ ... مِنَ النِّيلِ تُرْوِى غُلَّةَ الْأَرْضِ إِذْ تَجْرِى (٨)

وَبَيْنَهُمَا "بَلْهِيبُ" فِى زِىِّ رَابِضٍ ... أَكَبَّ عَلَى الْكَفَّيْنِ مِنْهُ إِلَى الصَّدْرِ (١)

(١) الخطوب : نوازل الدهر ، البرية : الخلق

(٢) بادت : هلكت ، الأعصر : جمع عصر وهو الدهر والزمان ، خلت : مضت – الأعجوبة : الأمر الذى يتعجب منه

(٣) تلوح : تبدو وتظهر ، ويريد بظهور اثار العقول على الهرمين : ما يتجلى للناظر اليهما من عبقرية الذين اشرفوا عليهما وبنوهما – الأساطير : جمع أسطار والأسطار : جمع سطر : وهو الصف من الكتابة ، لا تنفك : لاتزال ، يوم الحشر : يوم القيامة ، يريد ان الهرمين كأنهما كتاب سطر عليه مجد مصر القديم .

(٤) المكنون : المستور الخفى

(٥) يدانيهما : يقاربهما

(٦) صرح بابل : قصرها القديم الذى يعد بين عجائب الدنيا السبع ، والإيوان : ايوان كسرى الذى وصفه البحترى فى قصيدته المشهورة – البهر : مصدر بهره : اى غلبة وفضله وفاقه

(٧) قصة هاروت وسحره مذكورة فى القرآن الكريم – انتحى : قصد – المرصدان : قمتا الهرمين كناية عن شموخهما ويعد ذراهما فى السماء – مقاليد : جمع مقلاد : وهو المفتاح .

(٨) فاض الماء : كثر حتى سال – الدرة : اللبن وكثرته – الغلة : شدة العطش

يُقَلِّبُ نَحْوَ الشَّرْقِ نَظْرَةَ وَامِـــقٍ كَأَنَّ لَهُ شَوْقاً إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْـــــرِ (٢)

مَصَانِعُ فِيها لِلْعُلُومِ غَوَامِـــضٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ ابْنَ آدَمَ ذُو قَـــــدْرِ (٣)
رَسَا أَصْلُهَا وَامْتَدَّ فِى الْجَوِّ فَرْعُهَا فَأَصْبَحَ وَكْراً لِلسِّماكَيْنِ والنَّسْـــــرِ (٤)
فَقُمْ نَغْتَرِفْ خَمْرَ النُّهَى مِنْ دِنَانِهَا وَنَجْنِى بِأَيْدِى الْجِدِّ رَيْحَانَةَ الْعُمْـــرِ (٥)
فَثَمَّ عُلُومٌ لَمْ تَفَتَّقْ كِمامُهَـــــا وَثَمَّ رُمُوزٌ وَحْيُهَا غامِضُ السِّـــرِّ (٦)
أَقَمْتُ بِها شَهْراً ، فَأَدْرَكْتُ كُلَّ مَا تَمَنَّيْتُهُ مِنْ نِعْمَةِ الدَّهْرِ فِى شَهْـــرِ
نَرُوحُ وَنَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ لِنَجْتَنِـــى أَزَاهِيرَ عِلْمٍ لَا تَجِفُّ مَعَ الزَّهْـــرِ
إِذَا مَا فَتَحْنَا قُفْلَ رَمْزٍ بَدَتْ لَنَـــا مَعَارِيضُ لَمْ تُفْتَحْ بِزِيجٍ وَلَا جَبْرِ (٧)
فَكَمْ نُكَتٍ كَالسِّحْرِ فِى حَرَكَاتِـــهِ تُرِيكَ مَدَبَّ الرُّوحِ فِى مُهْجَةِ الذَّرِّ (٨)

---

(٩) بلهيب : ابو الهول – الزى: الهيئة – رابض : من ربوص الاسد – أكب : استند واعتمد

(١) وامق : محب

(٢) المصانع : المبانى الشامخة من القصور والحصون ونحوها .

(٣) رسا : استقر ورسخ – السماكان : نجمان يضرب بهما المثل فـى الرفعـة والعـلاء – النسر: كوكب .

(٤) النهى : العقل – الدنان : جمع دن : وهو يشبه الجرة الكبيرة – واراد بريحانه العمـر : اسرار العلوم ودقائقها

(٥) تفتق : تتفتح ، الكمام : جمع كم وهو غطاء الزهر قبل تفتحه، يريد ان الفراعنة اكتشفوا معارف وعلوما لايزال بعض حقائقها غامضا.

(٦) المعاريض : الاستا، ويريد بها خفايا التاريخ والعلوم والفنون ، الزيج : جدول فى علم النجوم ترصد به حركتها

(٧) النكت : جمع نكتة وهى الأثر القليل يشبه النقطة ، والمراد بالنكت هنا النقش الدقيق المحكم – مدب الروح : دبيبها وحركتها – المهجة : القلب والروح – الذر : صغار النمل

سَكِرْنَا بِما أَهْدَتْ لَنَا مِنْ لَبابِهـا فَيَالَكَ مِنْ سُكْرٍ أَتيحَ بِلاَ خَمْـرِ! (١)

يستهل الشاعر قصيدته بوصف الهرمين الكبيرين وما يحفّهما من معانى العظمة الخالدة الدالة على عبقرية الأسلاف حتى لكأنهما كتاب مسطور نقرأ فيه آثار هذه العبقرية العجيبة وما كشفت عنه من اسرار العلم ووصلت اليه من دقائق الفن ، وهى اسرار ودقائق لا يدركها البلى ، ولاينال منها الدهر إذ اصلها ثبات راسخ فى الأرض وفرعها وذراها فى السماء،وإنه لينتشى نشوة بهيجة حين يسرّح الطرف فيها ، فتتفتح له اقفال بعض أسرارها ، وتظل أقفال أخرى مغلقة غامضة شاهدة بمجد الأسلاف العلمى وتُطِلّ عليه هنا وهناك رسوم بديعة لأشخاص كأنما تدب فيهم الحياة ، رسوم تدهش العقول بما تحمل من اتقان التصوير وروعته ، وبين الهرمين ابو الهول ، او كما يسميه " بلهيب " فى هيئة اسد رابض معتمد على كفيه ناظر الى الشرق ، كأنه ينتظر دائما مطلع الفجر الباسم الذى ينشر أضواءه على ضفاف النيل (٢) .

وهذه القصيدة فى الوصف تُعدّ أمّ الشعر الفرعونى الحديث عند شوقى وأضارابه ممن تغنّوا بأمجاد الفراعين واحتفوا بتاريخنا القديم ، وعد باب الوصف من خير ابواب شعر البارودى

وليست هذه القصيدة الوحيدة التى أشاد فيها بالأهرامات وبقدماء المصريين

(٨) لبابها : اسرار صنعها – سكرنا : دهشنا وعجبنا – أتيح : قدر

(١) البارودى رائد الشعر الحديث د/ شوقى ضيف ص ١٦١

قلة قصيدة أخرى فيها مطلعها [١]:

أَىُّ شَىْءٍ يَبْقَى عَلَى الْحَدَثَانِ ... وَالْمَنَايَا خَصِيمَةُ الْحَيَوَانِ .

وله ثالثة مطلعها [٢]

بِقُوَّةِ الْعِلْمِ تَقْوَى شَوْكَةُ الْأُمَمِ ... فَالْحُكْمُ فى الدَّهْرِ مَنْسُوبٌ إِلَى الْقَلَمِ

و فيها يقول [٣]

فَانْظُرْ إِلَى الْهَرَمَيْنِ الْمَاثِلَيْنِ تَجِدْ ... غَرَائِباً لَاتَرَاهَا النَّفْسُ فِى الْحُلُمِ[٤]

صَرْحَانِ مَا دَارَتِ الْأَفْلَاكُ مُنْذُ جَرَتْ ... عَلَى نَظِيرِهِمَا فِى الشَّكْلِ وَالْعِظَمِ[٥]

.....

وَلَاحَ بَيْنَهُمَا بِلْهِيبُ مُتَّجِهاً ... لِلشَّرْقِ يَلْحَظُ مَجْرَى النِّيلِ مِنْ أَمَمِ[٦]

---

(١) ديوان البارودى ص ٥٧٣ - ٥٧٥

(٢) المرجع السابق ص ٤٥٧

(٣) المرجع السابق ص ٤٥٨

(٤) الهرمين : هما هرما الجيزة بمصر ويظن ان الأهرام تسمية عربية : من هرم الجبل : أى بلغ أقصى الكبر - الماثلات : اى القائمات الشاخصات - الحلم رؤيا النائم .

(٥) الصرح : هو البناء العالى - جرت : دارت وتحركت - نظير الشئ : مثله

(٦) " بلهيب : ابو الهول : وهو تمثال عظيم ضخم هائل ، له رأس انسان وجسم اسد - رمزا للعقل والقوة معا - يربض بين الهرمين بمنطقة الأهرامات بالجيزة بمصر - يلحظ بمؤخر عينيه - من امم : من قرب ومن كثب

۞ وصف الريف المصرى :

كان البارودى يجد فى ريف مصر الراحة والـــهدوء ، والمجـــال العذب وكثيرا ما فر اليه من متاعب السياسة ودنيا الجهاد ، ويجدد نشـــاطه ويتزود من نعيمه وفيه يقول [١]

دُنْيَا نَعِيمٍ تَكَادُ زَهْرَتُهَـــــــــــا تَزْرِى عَلَى الشَّمْسِ وَهْىَ مُزْدَهِرَةْ [٢]

وقد وصفه فى قصائد شتى ، مما يدل على شغف بالطبيعـــة فـــى مختلف مظاهرها، وعلى محبة صادقة لمصر فإن الإعجاب يولـــد الحـــب وكان البارودى من المعجبين بالطبيعة المصرية وجمالها ، اسمعه يقـــول فى وصف سريع يصور منظرا من مناظر الريف فى خطـــوط عريضـــة وحركة عاجلة [٣]

---

(١) ديوان البارودى ص ٢٤٥

(٢) تزرى : تعيب – مزدهرة : مسفرة مشرقة

(٣) ديوان البارودى ص ٤٣٤ – ٤٣٧

عَمَّ الْحيَا وَاسْتَنَّتِ الْجَدَاوِلُ ... وَفَاضَتِ الْغُدْرَانُ وَالْمَنَاهِلُ (١)

وَازَّيَّنَتْ بِنَوْرِهَا الْخَمَائِلُ ... وَغَرَّدَتْ فِي أَيْكِهَا الْبَلَابِلُ (٢)

وَشَمِلَ الْبِقَاعَ خَيْرٌ شَامِلُ ... فَصَفْحَةُ الْأَرْضِ نَبَاتٌ خَائِلُ (٣)

وَجَبْهَةُ الْجَوِّ غَمَامٌ حَافِلُ ... وَبَيْنَ هَذَيْنِ نَسِيمٌ جَائِلُ (٤)

تَنْدَى بِهِ الْأَسْحَارُ وَالْأَصَائِلُ ... كَأَنَّمَا النَّبَاتُ بَحْرٌ هَائِلُ (٥)

وَلَيْسَ إِلَّا الْأَكَمَاتِ سَاحِلُ ... وَشَامِخُ الدَّوْحِ سَفِينٌ جَافِلُ (٦)

مُعْتَدِلٌ طَوْراً، وَطَوْراً مَائِلُ ... تَهْفُو بِهِ الْجَنُوبُ وَالشَّمَائِلُ (٧)

وَالْبَاسِقَاتُ الشُّمَّخُ الْحَوَامِلُ ... مَشْمُورَةٌ عَنْ سُوقِهَا الذَّلَاذِلُ (٨)

---

(١) الحيا : المطر – استنت : انصبت وجرت – الجداول : الترع والأنهار الصغيرة – الغدران : جمع غدير – المناهل : الموارد : اى المشارب

(٢) ازينت : ازدانت وتجملت – النور : الزهر – الخمائل : جمع خميلة وهى الشجر الكثير الملتف – الأيك : الشجر الكثير ، الواحدة ايكة – البلابل : جمع بلبل وهو طائر صغير حسن الصوت

(٣) صفحة الأرض : وجهها – خائل : مختال

(٤) جبهه الجو : المراد بها اعلاه – حافل ممتلئ – جائل : متحرك

(٥) تندى : تجود وتسخو – الأسحار : جمع سحر وهو الوقت آخر الليل قبيل الفجر – الأصائل : جمع اصيل : وهو وقت اصفرار الشمس قبيل العزوف.

(٦) الأكمات : جمع أكمة وهى التل – والدوح : جمع دوحة ةهى الشجرة العظيمة من اى نوع – وجافل : مضطرب متحرك .

(٧) تهفو به : تميل به وتحركه – والجنوب والشمال : الريح التى تهب من جهه الجنوب والريح التى تهب من جهه الشمال – الشمائل : جما شمال على غير قياس.

(٨) الباسقات : يريد بها النخل الطويلة – الشمخ : المرتفعة – الحوامل : جمع حامل وهى الشحرة المثمرة – والذلائل: هى فى الأصل اطراف القميض السفلى ويريد هنا ان ساق النخلة عار من الجريد والسعف

مَلْوِيَّةٌ فِى جِيدِهَا الْعَثَـا كِـلُ ... مَعْقُودَةٌ فِى رَأْسِهَا الْفَلاَئِـلُ (١)

لِلْبُسْرِ فِيهَا قَانِئٌ وَنَاصِـــلُ ... مُخَضَّبٌ ، كَأَنَّهُ الأَنَامِـــلُ (٢)

كَأَنَّهُ مِنْ ذَهَبٍ قَنَـــادِلُ ... مِنَ الْعَرَاجِينِ لَهَا سَلاَسِلُ (٣)

للمنجنون بَيْنَهَا أَزَامِـــلُ ... تَخَالُهَا مَحْزُونَةً تُسَائِـــلُ (٤)

لَهَا دُمُوعٌ ذُرَّفٌ هَوَامِـــلُ ... كَأَنَّهَا أُمُّ بَنِينَ ثَاكِـــلُ (٥)

---

(١) الجيد : العنق – العثاكل : جمع عثكول وهو العذق او الشمراخ وهو فى النخلة بمنزلة العنقود فى العنب – الفلائل : جمع فليلة وهى الشعر المجتمع ويريد اعلى النخله واطراف الجريد اى (السعف والخوص)

(٢) السر : البلح لون ولم ينضج – قانئ : شديد الحمرة – مخضب : اسم مفعول من التخضيب وهو التلوين منه الخضاب – الأنامل : رؤوس الأصابع

(٣) كأنه : كأن البسر – قنادل : مصابيح – العراجين : جمع عرجون و يراد به (هنا) الشماريخ وهى التى تحمل الثمر .

(٤) المنجنون : الساقية او الناعورة –أزامل : أصوات مختلطة – تخالها : تحسبها

(٥) لها : للمنجنون – ذرف : جمع ذارف – اى سائل – هوامل : جمع هامل وهاملة من همات العين وفاض دمعها اى منهمرة) – ثاكل : فقدت ولدها .

فِى جِيدِهَا مِنْ ضَفْرِهَا حَبَائِلُ ... مِنَ الْقَوَادِيسِ، لَهَا جَلاجِلُ (١)

تَدُورُ كَالشُّهْبِ لَهَا منَازِلُ ... فَصَاعِدٌ وَدَافِقٌ ،وَنَازِلُ (٢)

وَالْمَاءُ مَا بَيْنَ الْغِيَاصِ سَائِلُ ... تَحْنُو عَلى شُطآنِهِ الْغَيَاطِلُ (٣)

كَأَنَّهَا حَوَائِمٌ نَوَاهِلُ ... وَالطَّيْرُ فِى أَفْنَانِهَا هَوَادِلُ (٤)

فهذه صورة جامعة للريف المصرى حافلة بشتى مناظره ، فمطر ومياه متدفقة ، الجداول تفيض لها الغدران والقنوات والخمائل متزينة بحلاها من الأزهار ، والبلابل تغرد على الأشجار والخير يعم التباع والبنات يختار عجبا بنضرته ، والأفق ملبد بالغمام ، والنسيم يهب لينا ويحول هنا وهناك ، ويجعل الأسحار والأصائل رطبة ندية منعشة ، كأنما النبات حين يهب هذا النسيم منه وعليه بخر هائل يموج ويتمايل ، وليس به من ساحل الا التلال الصغيرة ، وكأن الأشجار العالية سفن مضطربة من عبث الريح بها ، تعتدل طورا ، وتميل طور وتخفضها ريح الجنوب تارة وترفعها ريح الشمال أخرى ، والنخل عالية الذرى شامخة محملة بثمرها ، قد رفعت رداءها ، وشمرت عن ساقها ، وعقصت شعرها ،

---

(١) الجيد : العنق – من ضفرها : عن ضفر باسقات النخيل ويريد لبفها المضفور– حبائل : حبال – القواديس : جمع قادوس وهو اناء من خزف اصفر من الجرة واسع الفم يخوج به الماء من الساقيه – جلاجل : جمع جلجلة : وهو الصوت الشديد

(٢) تدور : تسير فى دائرة – كالشهب : يريد النجوم السيارة – منازل : اماكن تنتقل فيها .

(٣) الغياص : جمع غيضة وهى الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف– تحنو : تميل – شطآنه : جميع شاطئ – الغياطل : جمع الغيطلة وهى جماعة الشجر الملتف.

(٤) الحوائم : جمع حائمة وهى التى تدور حول الشئ– نواهل : شاربات مرتويات – الأفنان : الأغصان – هوادل : جمع هادل او هادلة : اسم فاعل من الهديل : وهو صوت الحمام

وترى البلح على وشك النضج ، فمنه أحمر قانئ ومنـــه نـــاصل اللـــون مخضب ، كأنه أنامل ، أو كأنه قناديل من ذهب، اتخذت مـــن العراجيـــن الصفراء الذهبية اللون سلاسل، وتسمع للساقية اصواتا مختلطـــة ، كأنـــها محزونة تشكو وتتساءل عن محنتها وكيف النجاة منـــها ، وتـــرى الميـــاة متدفقة من قواديسها، كأنها الدموع المنهملة ، او كأنـــها ام بنيـــن فقـــدت ابناءها وثكلتهم ، فلا تنفك تنوح عليهم وتبكى مصيرهم وقد ربطت فيـــها الحبال الغليظة كأنها ضفائر ، وعلقت فيها القواديس، كأنها جلاجل ، هـــى تدور كالنجوم السيارة ، لها منازل مقدرة مثل القمر والشمس فترى فيـــها الصاعد ، والمتدفق ، والنازل ، والماء يجرى فى القنوات وقـــد انحنـــت عليه الأشجار المتلفة ، ومسحت صفحته ، كأنها طيـــور مـــالت لتشـــرب وترتوى ، وتسمع للطيور فوق هذه الأشجار هديلا شجيا[1].

وهذه صورة سريعة لوصف الريف المصرى ، واضحة الســمات، زاهية الألوان ، من عاشق للطبيعة وصاف لها .

ومن المحقق ان البارودى كان يشعر بجمال الريـــف المصـــرى ونباتاته ومزروعاته حتى ليتحول تحت عينه الى حدائق وجنـــات بهيجـــة على شاكلة قوله [2]

(١) انظر وصف الطبيعة وتطوره فى الشعر العربى/ محمد خلف الله وآخرون ص ١٢٤ ، ١٢٥

(٢) ديوان البارودى جـ١ ص ٨٦ ، ٨٧

حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى جَنابٍ أَفْيَـــــحٍ ... زاهِى النَّباتِ بَعيدِ أَعْماقِ الثَّرَى (١)
تَسْتَنُّ فِيهِ الْعَيْنُ بَيْنَ مَنابِـــــتٍ ... طَابَتْ مَغارِسُها وجَنَّاتٍ رِوَا (٢)
مُلْتَفَّ أَفْنانِ الْحَدائِقِ لَوْ سَـــــرَتْ ... فيها السَّمُومُ لَشَابَهَتْ رِيحَ الصَّبَا (٣)
فَتُرابُهُ نَفَسُ الْعَبِيرِ ونَبْتُـــــهُ ... سَرَقُ الْحَرِيرِ وماؤُهُ فَلَقُ الضُّحَى (٤)
فإِذَا شَمِمْتَ وَجَدْتَ أَطْيَبَ نَفْحَـــةٍ ... وإِذا الْتَفَتَّ رأَيْتَ أَحْسَنَ ما يُرَى
والْقُطْنُ بَيْنَ مُلَوَّزٍ ومُنَـــــوَّرٍ ... كَالْغادَةِ ازْدانَتْ بأَنْواعِ الْحُلَـــى (٥)
فَكَأَنَّ عاقِدَهُ كُراتُ زُمُـــــرُّدٍ ... وكَأَنَّ زَاهِرَهُ كَواكِبُ فى الرُّوَا (٦)
دَبَّتْ به رُوحُ الْحَياةِ فَلَوْ وَهَـــتْ ... عَنْهُ الْقُيودُ مِنَ الْجَداوِلِ قَدْ مَشَى (٧)
فأُصُولُهُ الدُّكْنَاءُ تَسْبَحُ فى الثَّـــرَى ... وفُرُوعُهُ الخَضْراءُ تَلْعَبُ فى الْهَوَا (٨)
لم يَسْرِ فيه الطَّرْفُ مَذْهَبَ فِكْـــرَةٍ ... مَحْدُودَةٍ إِلاَّ تَرَاجَعَ بِالْمُنَـــى (٩)

---

(١) جناب اقبح : ناحية واسعة - الثرى : التراب الندى

(٢) تستن : تتنقل - روا : مقصور كلمة رواء اى مروية بالماء

(٣) السموم : الريح الحارة - الصبا : ريح معتدلة لطيفة

(٤) العبير : اخلاط من الطيب - سرق الحرير : أجود انواعه — الفلق: ضوء الصبح

(٥) الغادة : المرأة الناعمة - الحلى : ما تتزين به المرأة من الجواهر والمعادن المصنوعة .

(٦) يريد بالعاقد : ما انعقد من اللوز قبل ان يتفتح - الزمرد : حجر كريم اخضر اللـــون - زاهر : ابيض مضئ مشرق - ويريد بالزاهر المتفتح من القطن ، الروا : أصله الـــرواء بالمد : وهو حسن المنظر .

(٧) وهت : ضعفت وانفكت - جعل الجداول وقنوات الماء التى تحيط بنبات القطن قيـــودا ، وقال : ان روح الحياة قد سرت فيه ، ولو انفكت عنه هذه القيود لمشى .

(٨) الدكناء : صفة من الدكنة : وهى لون يضرب الى السواد

(٩) الطرف : العين

كل ما فى هذه الضنيعة او القطعة من الريف يأخذ بليـــة ، حتـــى لكأنه بين فراديس الجنان ، بما يرى من نبات كأنه الإستبرق وماء مشـــوق كأنه ضوء الصبح وثرى عطرى كأنه المسك ، والقطن على سوقه يـــزدان بأنواع الحلى ، وكأن ثمره والذى لم يتفتح كرات زمرد ، اما ما نضج منـــه وتفتح فكأنه كواكب تلمع وتضئ ، وإنه ليمتلئ بنضرة الحياة حتى ليظـــن البارودى أنه لو انفكت عنه قيود الجداول والقنوات مـــن حولـــه لنـــهض ماشيا، ويصيح فرحا بهذا المنظر الساحر الذى يجد فيه كل متاعـــه وكـــل لذته [1]

هذا وقد وصف البارودى كثيرا من الأشياء كالســـجن والقطـــار ، والخمر وغير ذلك وربما كان وصفه للقطار اول وصف من نوعـــه فـــى اللغة العربية ، لأن السكة الحديدية دخلت مصر فى آخريات أيام سعيد ولم يفطن شعراء عصره له أو لم يهتموا بوصفه [2] ويقول فيـــه [3]

(١) البارودى رائد الشعر الحديث د/ شوقى ضيف ص ١١٨

(٢) فى الأدب الحديث / عمر الدسوقى جـ١ ص ٢٠٤

(٣) ديوان البارودى ص ٤٠

وَلَقَدْ عَلَوْتُ سَراةَ أَدْهَمَ لَوْ جَرَى ... فى شَأْوِهِ بَرْقَ تَعَثَّرَ أَوْ كَبَا (١)
يَطْوِى الْمَدَى طَىَّ السِّجِلِّ ، وَيَهْتَدِى ... فى كُلِّ مَهْمَهَةٍ يَضِلُّ بها الْقَطَا (٢)
يَجْرِى عَلَىَ عَجَلٍ ، فلا يَشْكُو الْوَجَى ... مَدَّ النهارِ ، وَلايَمَلُّ مِنَ السُّرَى(٣)
لا الْوَخْدُ مِنْهُ ، ولا الرَّسِيمُ ، ولا يُرَى ... يَمْشِى العِرَضْنَةَ ، اويَسِيرُ الْهَيْدَبَ(٤)

ويقول في وصف السجن (٥)

فسَوَادُ اللَّيْلِ ما إِنْ يَنْقَضِى ... وَبَيَاضُ الصُّبْحِ مَا إِنْ يُنْتَظَرْ
لَا أَنِيسٌ يَسْمَعُ الشَّكْوَى وَلَا ... خَبَرٌ يَأْتِى وَلَا طَيْفٌ يَمُرْ
بَيْنَ حِيطَانٍ وَبَابٍ مُوصَدٍ ... كُلَّمَا حَرَّكَةُ السَّجَّانِ صَرْ(٦)
يَتَمَشَّى دُونَهُ ، حَتَّى إِذَا ... لَحِقَتْهُ نَبْأَةٌ مِنِّى اسْتَقَرْ (٧)
كُلَّمَا دُرْتُ لأَقْضِى حَاجَةً ... قَالَتِ الظُّلْمَةُ : مَهْلاً ، لَا تَدُرْ
أَتَقَرَّى الشَّىْءَ أَبْغِيهِ ، فَلَا ... أَجِدُ الشَّىْءَ ، وَلَا نَفْسٌ تَقَرْ (٨)
ظُلْمَةٌ مَا إِنْ بِها مِنْ كَوْكَبٍ ... غَيْرُ أَنْفَاسٍ تَرَامَى بِالشَّرَرْ (٩)

وهذه القطعة فيها أبيات من الشعر التى تغنى بتصويرها الحقيقة عن أى خيال مهما عمق وملح.

---

(١) السراة : اعلى كل شئ – الأدهم : الفرس الأسود ، ويريد به قطار السكة الحديد .

(٢) المهمهة : المغازة او الصحراء البعيدة– القطا : ضرب من الحمام يضرب المثل بهدايته

(٣) الوحى : الحفا ، وهو رقة القدم والحافر من كثرة السير – السرى : السير عامة الليل

(٤) الوخد: سعة الخطو – الرسيم : سير للإبل قريب من الهرولة – العرضنة : نوع من السير يمتاز بالخفة والسرعة – الهيدبى : مشما للخيل فيه جد

(٥) ديوان البارودى ص ٢٥٠

(٦) موصد: مغلق – صر : صوت

(٧) دونه : على مقربة منه – لحقته نبأة : سمع صوت خفى منى – استقر : ثبت ووقف

(٨) اتقرى الشئ : اتتبعه – تقر : تستقر

(٩) يريد بالظلمة : ظلام السجن – ويريد بالانفاس : انفاسه الحارة المنبعثة من الهم والحزن : تترامى: اى ترمى

الوصف عند البارودى فى الميزان

كان هذا اللون من الشعر (الوصف) يلفظ انفاسه الأخيرة لـــدى شعراء القرن التاسع عشر الذى ألهتهم المدائح وشغلتهم الزخارف الشـكلية عن المضمون فنضب هذا الشعر الحى الذى ينبـــض بالشـــاعرية الحقـــة واضمحل اضمحلالا شديدا حتى لا نكاد نجد لشعراء القرن التاسع عشـر - قبل البارودى الا الأبيات المعدودة فى هذا الباب [1] ، فلما كان البـــارودى اندفع بشاعريته ، وحواسه المرهفة الى الطبيعة الســـاحرة مـــن حولـــه ، وأحبها حتى ملكت عليه شعاف قلبه ، فوصف كل ما وقع بصره عليه مـن ريف مصر ، ومناظره الخلابة فتراه يصف القطن ، والناعورة والســـحب والطيور ، والرعد والبرق ، كما وصف الأشـــخاص وصورهـــا كأمـــهر مصور ، ووصف المعارك وميادين القتـــال وأدواتـــه ووصـــف الآثـــار المصرية ونقوشها ، فدل بهذه الموصوفات علـــى أنـــه شـــاعر الجمـــال أو العظمة فيما حوله من مناظر " لأن هذا الوصف لا تحفزه اليه رغبـــة فى صلة او تقرب من امير ، وإنما هى اشباع لرغبة فنيـــة تجيـــش فـــى صدره وتحاول شاعريته الإفصاح عنها" [2] وكان من رواد هذا الفن فـــي شعرنا العربى القديم شعراء كثيرون من ابرزهم امرئ القيس وطرفه بـــن العبد لبيد بن ربيعة والأعشى وعنترة وغيرهم مـــن شـــعراء الجاهليـــة ، ومن الأمويين الأخطـــل والفـــرزدق وجريـــر وغـــيرهم مـــن الشـــعراء

---

(١) انظر : تطور الشعر العربى الحديث فى مصر د/ ماهر حسن فهمى ص ٧٢

(٢) فى الأدب الحديث / عمر دسوقى جـ١ ص ١٩٥ - الطبعة الخامسة ١٩٦١، والطبيعـة بين المحافظين والمجددين فى الشعر العربى الحديث فى مصر د/ مفيدة ابراهيم علـــى عبد الخالق ص ٧٥ - ٨٠

وحتى اذا وصلنا الى العصر العباسى رأينا الوصف يتنوع بين وصف الطبيعة كما هى وبين وصف العمران او الآثار كما فعل البحترى .

۞ سمات الوصف عند البارودى مقارنا بالوصف عند البحترى

١- الوصف عند البارودى قد اتسم بطابع جديد ، خلاصة ما يقال فيه أنه أفرد له قصائد بعينها ، ولم يأت به فى خلال قصائده عرضا كما كان مألوفا فى الشعر العربى .كذلك يعد البحترى اول من اهتم من شعراء العصر العباسى الثانى بفن " الوصف" وافرد له قصائد بعينها[١].

٢- البارودى شاعر الطبيعة الملهم ووصافها الممتاز ، ينقلها إلينا ملونه بشعوره فى خطوط واضحة ، تدل على احساسه المرهف ، وتذوقه للجمال وعمق فى فهم الوعى الكونى للحياة ولا أدل على ذلك من قصيدته التى يقول فيها فى وصف الربيع [٢]

فَفِي الْجَوِّ هَتَّانٌ يَسِيلُ وَفِي الثَّرَى ... سُيُولٌ تَرَامَى بَيْنَ أَوْدِيَةٍ غُزْرِ
غَمَامَانِ فَيَّاضَانِ هَذَا بِأُفْقِهِ ... يَسِيرُ ، وهَذَا فِي طِبَاقِ الثَّرَى يَسْرِي

(١) انظر : الأدب العباسى ونصوصه د/ احمد عبد الغفار عبيد ص ١٠٥ ، ص ١٠٦ طبعة ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠ م - الدار المصرية للنشر والتوزيع بالاسكندرية .

(٢) ديوان البارودى ص ١٩٣ ، وانظر القصيدة بالبحث ص ٥ ، ٦

وكان البارودى مفتونا بالطبيعة مأخوذا بسحرها وعلى الأخص بعد أن احتوته بسحرها فى جزيرة " سيلان " فأخذ يصف جبالها وأنهارها وأمطارها الغزيرة وجداولها الجارية وضبابها الكثيف وخضرتها اليانعة وغير ذلك مما يحس القارئ معن بأثر التجربة الصادقة والملاحظة الواعية [١] ، اما البحترى فقد تناول شعر الطبيعة بعصره وما قبله فجلاه فى ثوب فاتن ، واضفى عليه من روح الشاعر فيضا لا تحجبه الصنعة التى ساهم فى الأخذ بها ، ولا تغشيه الزينات البديعة [٢] وحسن الطبيعة يستولى على حسن البحترى ومن اجله يختار المقام فالشام افضل من العراق لأن طبيعة الأولى اجمل والجمال عنده يأخذ بخط من الرقة وإذا رحل الى العراق فظهرت محاسن كبيعتها امامه ، فتن وعبر عنها تعبيرا عاطفيا رقيقا ، يبدو فيه التعلق البصرى والسمعى والشمى [٣] وقد قال فى وصف الربيع [٤]

---

(١) مجلة الهلال ص ٧٩ عدد مارس ١٩٧٢ من مقال د/ عبد القادر القط بعنوان " البارودى فارس السيف والقلم

(٢) شعر الطبيعه فى الأدب العربى د/ سيد نوفل ص ١٧٨ طبعه ١٩٤٥.

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٨٠

(٤) ديوان البحترى تحقيق / حسن كامل الصيرفى - جـ٤ ص ٢٠٩٠ ، ٢٠٩١ -ط الثانيه دار المعارف

أتاك الرَّبيعُ الطلق يَخْتَالُ ضاحِكاً ... مِن الْحُسْنِ حتىَّ كادَ أن يَتكلَّمَـا
وقدْ نَبَّه النَّيْروزُ فى غلَسِ الدُّجَى ... أوائلَ وَرْدٍ كُنَّ بالأَمْسِ نُوَّمَـا
يُفَتِّقُها بَرْدُ الندَى فكأنَّـــه ... يَبُثُّ حَدِيثاً كَانَ أَمْسِ مُكتمَّـا
ومنْ شَجَر رَدَّ الرَّبِيعُ لِبَاسَـهُ ... عَلَيْهِ كما نَشَّرْتَ وَشْياً مُنَمْنَمَـا
أحلَّ فأبْدَى لِلْعُيُونِ بَشَاشَـةً ... وكَان قذىً للعَيْن إذْ كَان مُحْرِمَا
ورَقَّ نَسِيمُ الرِّيحِ حتَّى حَسِبْتَـهُ ... يَجِئُ بأَنفاسَ الأَحِبَّهِ نُعَّمَـا
فَمَا يَحبِسُ الرَّاحَ الَّتى أَنْتَ خِلُّها ... ومَا يَمْنَعُ الأَوْتَار أَنْ تَترنَّمَـا؟

وكان لزاما على شاعر هذه روحه وتلك أحاسيسه أن يجلى الربيع عروسا تختال ضاحكة يتفتح لمقدمها الورد وتلبس الأشجار انصر اللبـاس وترق النسمات ويختفى كل ما الدنيا من قذى وعبوس وكان لزامـا عليـه كذلك ان يهيب بالراح والأوتار فهذا عرس الطبيعة ، وينبغى لحبيبـها ان يحتفل به ، ويكرم مقدمه ، إنها أرق تحية ، وانضرها وابهاها، تتساب كمـا تتساب الحياة التى يحملها الربيع الى عروق الورود والرياحين وتدب فـى النفس كما تدب نضارته فى الأشجار وقد اختار الألفاظ اختيارا بارعا يتـم به لهذا الجو همسة ورقته فالغسق ، والمنمنم ، ومكتم الحديث ، والوشـى المنمنم وانفاس الأحبة ، والأوتار المترنمة - كل هذه مواد البنـاء لـهذه الصورة الفنية ، وما ابرع شاعرنا من بناء[1]

(١) شعر الطبيعة فى الأدب العربى د/ سيد نوفل ص ١٨٠ ، ١٨١ وانظـر فنـون الأدب العربى الوصف - وضعه لجنه امن الأدباء ص ٧٦ ط ثالثه دار المعارف

٣- تمتاز أوصاف البارودى بالدقة وابتداع الأسلوب ، والإكثار من الصور الحية الرائعة وترجع عنايته بالحس الى كثرة مظاهر الحضارة الحسية فى عصره وبيئته والى عاطفته الشعرية الحريصة على ان تمثل الحضارة فى صور من جمال الفن مصبوغة بصبغة حسيه خالصة [١] ومن وصفه قال يصف الهرمين فيقول : [٢]

سَلِ الْجِيزَةَ الْفَيْحَاءَ عَنْ هَرَمَيْ مِصْر لَعَلَّكَ تَدْرِى غَيْبَ مَا لَمْ تَكُنْ تَدْرِى
بِنَاءانِ رَدَّا اصَوْلَهُ الدَّهْرِ عَنْهُمَا وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ يَغْلِبَ صَوْلَةَ الدَّهْرِ

.....

وَبَيْنَهُمَا " بلْهِيبُ " فِي زِيِّ رَابِضٍ أَكَبَّ عَلَى الْكَفَّيْنِ مِنْهُ إِلى الصَّدْرِ

وللمرة الأولى فى تاريخ الشعر العربى ترى البارودى يقف وقفة طويلة امام الهرمين ويصفهما بهذه القصيدة الرائعة ، التى تدل على إعجابه بالآثار المصرية والتغنى بها ، وتعد تلك القصيدة ام الشعر الفرعونى الحديث .

- كما أن كثرة المظاهر الحضارية التى شاعت فى العصر العباسى من القصور الفخمة والأبنية الرائعة ، والحدائق المنسقة والمغانى المعشية، والجداول المنسابة ..... إلى غير ذلك من المشاهد التى تسحر العيون ، وتخلب الألباب ومن ناحية اخرى اتسعت رقعه الدولة وامتدت اصقاعها وتبانيت مجالس الحسن فى مشاهدها ومرائيها ،

(١) البارودى أو فترة من ادبنا / اعداد السيد مرسى ابو ذكرى طبعة ١٩٦٩
(٢) ديوان البارودى ص ٢٢٠ - ٢٢٢

وأتيحت للشعراء فرصة التنقل بين أقطارها ، فكانت لهم سياحاتهم ورحلاتهم التى عاينوا فيها تلك المشاهد وتعد سينيه البحترى التى وصف فيها إيوان كسرى من روائع الشعر العربى فقد وصف فيها أطلال الإيوان وصفا زاخرا بالأحاسيس الجياشة والخواطر الشعرية اللماحة وفيها يقول متحدثا عن الإيوان [1]

لَوْ تَرَاهُ علمتَ أنَّ اللَّيَالِى ... جَعلتْ فيه مَأْتماً بعد عُرسِ
وإذا مَا رأيت صُورَة أنطاكيَّة ... ارتَعتَ بين روم وفُرْسِ
والْمَنَايا مَوَاثِلٌ وَأنو شِرْوَان ... يزْجِى الصفوف تحت الدرَفْسْ [2]
وعراكُ الرجال بين يدَيْه ... فى خفوتٍ منهم وإغماض جَرْسِ [3]
من مُشيحٍ يهْوى بعاملِ رمْح ... ومُليح منَ السِّنان بتُرْسِ [4]
تصف العينُ أنهم جِدُّ احياءٍ ... لهم بينهم إشارةُ خُرْسِ
يغْتلى فيهمُ ارتيابىَ حتى ... تتقراهُم يداى بلمْسِ [5]

والبحترى لا يبارى فى تصويره الحسى ، حتى لكأنما ينقل المشهد بحذافيره ، لا لينصره فحسب ، بل لنلمسه بأيدينا ، ومن أجمل قصائده الوصفية قصيدته فى وصف البركة الصناعية التى شيدها المتوكل فى سامراء حول قصر الجعفرى [6]

---

(١) الأدب العباسى ونصوصه د/ احمد عبد الغفار عبيد ص ١٠٦
(٢) يزجى : يسوق – الدرفس / العلم الكبير
(٣) خفوت : صمت – جرس : صوت خفى
(٤) مشيح : مقبل – عامل الرمح : صدره – مليح : خائف حذر
(٥) يغتلى : يتجاوز الحد ويعظم – تتقراهم : تتبعهم
(٦) الأدب العباسى ونصوصه د/ احمد عبيد ص ١٧١

وفيها يقول البحترى [1]

يامَنْ رأىٰ البِرْكَةَ الحَسْنَاء رُؤْيَتَهَا ... والآنِسَات إذا الاحَتْ مَغَانِيهَـــا [2]

تَنْحَطُّ فِيهَا وُفُودُ الْمَاءِ مُعْجَلَـــةً ... كالْخَيْلِ خارِجَةً مِنْ حبْلِ مُجْرِيهَا

كَأَنَّمَا الفِضَّةُ البَيْضَاءُ سائلـــــةً ... مِنَ السَّبَائِكِ تَجْرِى فى مَجَارِيهَا

فَرَوْنَقُ الشَّمسِ أَحْيَاناً يُضَاحِكُهَا ... وَرَيِّقُ الْغَيْثِ أَحْيَاناً يُباكِيهَـــا

إِذا النُّجُومُ تَرَاءَتْ فى جَوَانِبِهَا ... لَيْلاً حَسِبْتَ سَمَاءً رُكِّبَتْ فِيهَـــا

بدأ فى وصف البركة وتعجب من براعة مشـــاهدها وحســـن مـــا يحيط بها من مبان ومجالس ومتنزهات ، ويصف مدخل الماء النهر اليـــها فيذكر أن المياه تتحدر اليها فى سرعة وكأنها الخيل السراع ، التى كـــانت مقيدة ثم فك وثاقها فاندفعت ، ويشبه مياهها فـــى صفائـــها ونصوعـــها بالفضة السائلة ، واحيانا تسطع عليها الشمس فتبدو مشـــرقة كمـــن يبـــدو ضاحكا مسرورا ، واحيانا تفاديها السحائب بالمطر الخفيف وكأن الســـماء تساقط عليها الدموع . وهى ترى بالليل وقد انعكست على صفحتها صورة السماء بما فيها من نجوم سواطع فكأنما قد ركبت فيـــها او كأنـــها ســـماء أخرى [3]

٤- يعد شعر الوصف من أجمل أبواب شعر البارودى ، وقد اكثر فيـــه وأجاد ، كما أن شعر الوصف من اجمل ابواب شعر البحترى وقـــد أكثر فيه واجاد ووصفه لإيوان كســـرى موضـــع إعجـــاب النقـــاد والذواقين ووصف البركة من أجمل قصائده الوصفية .

---

(١) ديوان البحترى جـــ٤ ص ٢٤١٦ - ٢٤١٨

(٢) الإنسان هنا جوارى المتوكل وكانت منازلهن تحف بالبركة .

(٣) راجع الأدب العباسى ونصوصه د/ أحمد عبيد ص ١٧٤ - ١٧٦

ومما سبق يتضح لنا أن البارودى لديه القدرة على مجاراة الشعراء العباسيين والمخضرمين والجاهليين فى اشعارهم ، وهو لم يصل الى هذا المستوى العالى طفرة واحدة ، بل بعد صبر ومكابدة ساعد على تحقيق هذه النهضة الشعرية على يديه .

۞ لمحات من تصويره ولقطاته الوصفية البارعة:

لم تكن جزالة العبارة وبهجة الديباجة ورصانة التراكيب هى كل الجديد الذى جاء به البارودى بل من الجديد الذى شد الأسماع لشعره ودعا الى الإعجاب به " معالجته الأدب التصويرى " فعدسة عينيه اللاقطة تصور الواقع فى بساطة وسلاسة وقوة تحس معها بإرسال النفس على سجيتها لأنه لا يتعمق ولا يعمد الى التعقيد أو الغموض ولا يتكلف الاستعارات أو السير فى اخاديد البديع ودروب الصناعة وإنما يرسل نفسه على سجيتها ارسالا منصور ما هو أمامه ويعبر عن عواطفه كما يريد ان يعبر الناس فلا يستطيعون ، واعتماد البارودى على حواسه فى شعره صفة بارزة فيه وخاصة المنظور الذى ظل يزداد وضوحا مع الأيام وتزداد فيه الحركة والحياة بنوع خاص ، وهو حين يسجل الصور بألفاظه الموسيقية ، لم يكن يسجلها فى صمتها وسكونها على عادة عشاق الطبيعة الصامته ، بل فى نشاطها وتحلاكها حتى ليخيل لقارئ شعره وسامعه ان الحياة تنبض فى كل جزء تقع عليه العين وتحيط به الباصرة [1]

---

(١) محمود سامى البارودى شاعر النهضة د/ على الحديدى ص ٣٧٥، وانظر امراء الشعر / السيد فرج ص ٢٩٥ طبعة سنة ١٩٨٢ م - الهيئة المصرية العامة للكتاب

ومن ذلك قوله يصف روضة " برديني " فى جزيرة " سـرنديب " وهى إحدى جنات الدنيا [١]

وَمَسْرَحٍ لِسِوَامِ الْعَيْنِ لَيْسَ لَـهُ ... فِى عَالَمِ الظَّنِّ تَقْدِيرٌ وَلَا شَبَـهُ [٢]

بَاكَرْتُهُ سُحْرَةً وَالشَّمْسُ نَاعِسَـةٌ ... فِى خِدْرِهَا ، وَحَمَامُ الْأَيْكِ مُنْتَبِهُ

وَلِلْغَمَائِمِ بَيْنَ الْأُفْقِ مُنْسَحَـبٌ ... وَلِلنَّسَائِمِ نَحْوَ الرَّوْضِ مُتَّجَـهُ

فَالنُّورُ مُنْقَبِضٌ ، وَالظِّلُّ مُنْبَسِـطٌ ... وَالطَّيْرُ مُنْشَرِحٌ وَالْجَوُّ مُذْلَـلُـهُ [٣]

مَنَاظِرٌ لَوْ رَأَى " بَهْزَادُ " صُورَتَهَـا ... لَاعْتَادَهُ مِنْ تَمَادِى الْحَيْرَةِ الْبَلَهُ [٤]

كَأَنَّمَا الدَّوْحُ قَصْرٌ ، وَالْحَمَامُ بِـهِ ... سِرْبٌ مِنَ الْغِيدِ بِالْأَلْحَانِ تَبْتَدِهُ [٥]

طَـوْرًا تُغَنِّى ، وَأَحْيَانًا تَنُوحُ ، فَمَا ... ذَاكَ الْغِنَاءُ ، وَهَذَا النَّوْحُ وَالْوَلَهُ؟ [٦]

فالقارئ يقف أمام هذه اللوحة الفنية ليرى جمال التصوير وسـحر الفن الذى لا يؤديه الإ فنان مبدع ، ومصور ماهر فقد نقلنا الى تلك الروضة فشاهدنا ما فيها ، وانتشينا بروعة ما حوت ، فالنور منقبض والظل منبسط ، والطير منشرح ، والجو مدله ، وجمال التصوير يواكبـه الأداء الموسـيقى الأخاذ وحتى كان التوافق الكامل بين المعانى الرقراقـة والحالـة النفسـية

---

(١) ديوان البارودى ص ٥٩١

(٢) المراد بسوم العين : بهجتها وقرتها

(٣) مدله : متحير متردد

(٤) " بهزاد" كمال الدين بهزاد من اعلام التصوير الإسلامى وأشـهر مصـورى الفـرس وفنانيهم وخطاطيهم (نقلا عن : تطور القصيدة الغنائية د/ حسن احمد الكبير ص ٥٥)

(٥) تبتده : تستقبل الزائرين لهذه الروضة

(٦) الطور : المرة – ناحت الحمامة : سجعت – الولة : الحزن الشديد

الحاملة مما يثير النفس ويبعث فيها غاية البهجة والسعادة [١]، فهو مصـــور بارع دقيق فى كل ما يتناول من وصف رقيق المشاعر مرهف الحـــس ، انظر اليه يصف طائرا وقد أيقظه من سنته تحركته على غصنـــه فـــراح يتابع تحركه فى دقة [٢]

وَنبأةٍ أَطْلَقَتْ عَيْنَىَّ مِنْ سِنَـــةٍ ... كَانَتْ حِبَالَةَ طَيْفٍ زَارَنِى سَحَـــرَا[٣]

فَقُمْتُ أَسْأَلُ عَيْنِى رَجْعَ مَا سمِعتْ ... أُذْنِى ، فَقَالَتْ : لَعَلَّى أَبْلَغُ الْخَبَرَا

ثُمَّ اشْرَأَبَّتْ ، فَأَلْفَتْ طَائِراً حَذِراً ... عَلَى قَضِيبٍ يُدِيرُ السَّمْعَ والْبَصَرَا[٤]

مُسْتَوْفِزاً يَتَنَزَّى فَوْقَ أَيْكَتِـــهِ ... تَنَزِّىَ الْقَلْبِ طَالَ الْعَهْدُ فَادَّكَـــرَا[٥]

لا تَسْتَقِرُّ لَهُ سَاقٌ عَلَى قَـــــدَمٍ ... فَكُلَّمَا هَدَأَتْ أَنْفَاسُهُ نَفَـــــرَا

يَهْفُو بِهِ الْغُصْنُ أَحْيَاناً ، وَيَرْفَعُهُ ... دَحْوَ الصَّوَالِجِ فِى الدَّيْمُومَةِ الأُكُرَا[٦]

مَا بَالُهُ وَهْوَ فِى أَمْنٍ وَعَافِيَـــةٍ ... لايَبْعَثُ الطَّرْفَ إِلاَّ خَائِفاً حَـــذِرَا ؟

إِذَا عَلاَ بَاتَ فِى خَضْرَاءَ نَاعِمَةٍ ... وَإِنْ هوَى وَرَدَ الْغُدْرَانَ أَوْ نَقَرَا [٩]

---

(١) تطور القصيدة الغنائية فى الشعر العربى الحديث د/ حسن احمد الكبـــير ص ٥٥ – دار الفكر العربى

(٢) ديوان البارودى ص ٢٥١ – ٢٥٢

(١) النبأة: الصوت الخفى ، السنة : النعاس ، الحبالة : المصيدة ، السحر : الوقت آخر الليل قبيل الفجر .

(٢) اشرأبت :ارتفعت – ألفت : وجدت ، خدرا : خائفا محترسا– قضيب : غصن

(٣) مستوفزا : متهيا للوثوب – يتمزى : يثب – الأيكة : الشجرة ذات الأغصان الكثيرة الملتفة .

(٤) يهفو : يهتز – دحو: دفع – الصوالج : الصولجان : عصا معوجة يعطف طرفها ، وتضرب بها الكرة – الديمومة : الأرض المستوية – الأكرا : جمع اكره : وهى الكرة التى يلعب بها

(٥) الغدران : جمع غدير – ونقر الطائر الحبة التقطاها بمنقارة

مما يعتبر جديدا فى الشعر العربى ، حيث نراه فى محاولة بارعة للتعرف على دخيلة نفس الطائر ودوافع الخوف عنده وما يجعله مضطربا يتنقل فى توجس وحذر رغم ما يوحى به ظاهر الأمر من هدوء هذا الطائر واستقراره النفسى [1] ، فوصف الشاعر حركة الطائر الحسية والنفسية وصفا دقيقا .

ويعرض البارودى فى وصفه لوحات باهرة تخفق بالحياة والحركة إذ كان يعرف كيف يطم من لقطات المشاهد ما يلصق مناظرها بنفس سامعه . الصاقا على شاكلة قوله يصف الصقر وشده بأسه وفتكه ببغاث الطير يقول [2]

(١) تطور القصيدة الغنائية د/ حسن احمد الكبير ص ٥٥ ، ٥٦

(٢) ديوان البارودى ص ٣٦٣ ، ٣٦٤

أَرْبَى عَلَى شمراخ أَرْعَنَ بَاذِخٍ ... سَامٍ لَهُ فَوْقَ السَّحَائِبِ طَاقُ (١)

نَهْمَانُ يَعْتَلِقُ الْقَطَا بِمَخَالِبٍ ... حُجْنٍ ، لَهُنَّ بِوَقْعِهَا تَصْعَاقُ (٢)

لَا يَسْتَقِرُّ بِهِ الْجَنَاحُ ، وطَرْفُهُ ... مُتَقَلِّبٌ يَسْمُو بِهِ الإِرْشَاقُ (٣)

بَيْنَا كَذَلِكَ إِذْ أَصَابَ عِصَابَةً ... لِلطَّيْرِ أَرْسَلَهَا صَدىً مِحْرَاقُ (٤)

فَسَمَا ، فَحَلَّقَ ، فَاسْتَدَارَ ، فَصَكَّهَا ... بِمُذَرَّبٍ تَمْكُو لَهُ الْأَعْنَاقُ (٥)

تَسْمُ ، فَيَتْبَعُهَا ، فَتَهْوِي وَهْوَ فِي ... آثَارِهَا مَرُّ الشِّهَابِ حِرَاقُ (٦)

مَذْعُورَةٌ تَبْغِي الْفِرَارَ مِنَ الرَّدَى ... إِنَّ الْفِرَارَ مِنَ الْمَنُونِ وَثَاقُ (٧)

حَتَّى إِذَا فَتَرَتْ ، وَحَطَّ بِهَا الْوَنَى ... سَقَطَتْ ، فَلَيْسَ لِنَفْسِهَا أَرْمَاقُ (٨)

فَأَتَى ، فَمَزَّقَهَا كَمَا حَكَمَ الرَّدَى ... وَلِكُلِّ نَفْسٍ مَرَّةً إِزْهَاقُ (٩)

- والبيتان الأولان يحملان الفكرة الأساسية فى الأبيات ، وهى قوة الصقر حتى ليمعن في طيرانه معتليا السحاب وانقضاضه على ضفاف

---

(١) اربى : علا - الشمراخ : قمة الجبل - ارعن : ذو رعان طوال وهى الأعالى الناتئة - باذخ : شامخ - سام : شاهق - الطاق : النتوء البارز من الجبل

(٢) نهمان : نهم - يعتلق : يقبض - القطا : نوع من الحمام - حجن : معوجة تصعاق : مصدر صعق : اى غشى عليه ومات

(٣) الإرشاق : تحديد النظر

(٤) الصدى : العطش - محراق : صيغة مبالغة من حرقه بالنار اى محرق

(٥) فسما : علا - صكها : ضربها - مذرب : حاد قاطع - تمكو : تتمزق وتسيل منها الدماء

(٦) حراق شديد

(٧) الردى : الهلاك - المنون : الموت - الوثاق : القيد

(٨) فترت : ضعفت - الونى : الكلال والإعياء - الأرماق : جمع رمق وهو بقية الحياة المذبوح والمختضر

(٩) الإزهاق : خروج الروح من الجسد والموت

الطير من مثل القطا حتى لتُصْعَقَ حين يُنْشِبُ فيها مخالبه القوية ، وكان من الممكن ان يكتفى البارودى بهذين البيتين فى تصوير فكرته ولكن ملكته الخيالية الخصبة بعثته على مَدِّ هذا التصوير حتى يصبح لوحة كبيرة ، ومن اجل ذلك مضى يصور الصقر مدوِّماً فى السماء وقد حدَّدَ بصره باحثاً عن صيد يقع عليه، وبينما هو فى بحثه وتصويب نظره يميناً وشمالاً واماماً و من وراء اذ جماعة من الطير قد بعثتها حرقة الظمأ من أوكارها ، فخرجت تطلب ماء ، ويراها الصقر ، وهنا يصور البارودى حركته فى البيت الخامس وهو يهمُّ بالانقضاض عليها ، فقد علا فى الجو وحلَّق من فوقها واستدار وصكها بمخلب حاد قاطع أنشبه فى رقابها فسالت دماؤها ومضى البارودى يُكمل الصورة ، فالطير تضطرب بين ارتفاع وسقوط و الصقر فى إثرها كأنه الشهاب الماحق ، ويأخذها فزع شديد وتبغى الفرار من الموت ، ويلحقها الكلال والإعياء ، فتخَرُّ على الأرض مغشياً عليها ، وينقضُّ فوقها يمزقها وقد استسلمت فى يأس وألم للقدر المحتوم ، وواضح انها لوحة غنية بالأحاسيس والحركة الدائبة [1]

لهذا كله نستطيع أن نؤكد ما سبق أن قررناه من أن البارودى كان باعثا للشعر ومجددا له بعد أن تسربت اليه عوامل الفناء قرونا طويلة .

---

(١) البارودى رائد الشعر الحديث د / شوقى ضيف ص ١٨٩، ١٩٠

ولذلك يقول العقاد : " ان الفضل الذى له على عصره اكبر بكثير من الفضل الذى لعصره عليه فما جاء به من عند نفسه كثير لا يقاس اليه ما يجئ من قدره معاصريه" (١)

والجديد فى البحث أننى أثبتُّ أن البارودى من أكثر شعراء العربية وصفا للطبيعة على اختلاف مظاهرها ، وأنه أفرد للوصف قصائد بعينها وذلك من خلال اشعاره فى الديوان، و أن له فضل السبق حيث أنه أول من فتح الباب أمام العديد من الشعراء للاهتمام بهذا الفن.

وهكذا فإن شعر البارودى الوصفى يفخر به الشعر العربى ...

والله ولى التوفيق ،،

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى / عباس محمود العقاد ص ١٤٢ دار نهضة مصر للطباعة والنشر - الفجالة - القاهرة

المصادر والمراجع

١- الأدب العباسى ونصوصه د/ أحمد عبد الغفار عبيد ط ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م الدار المصرية للنشر والتوزيع بالاسكندرية

٢- الأدب العربى الحديث د/ أحمد عبد الغفار عبيد ط ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

٣- أدب مصر الحديث / مصطفى زيد ط الاولى ١٩٤٩م

٤- أمراء الشعر / السيد فرج ط ١٩٨٢- الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٥- البارودى أو فترة من ادبنا / إعداد السيد مرسى أبو ذكرى ط ١٩٦٩م

٦- البارودى رائد الشعر الحديث د/ شوقى ضيف ط ١٩٦٤م - دار المعارف - مصر

٧- تاريخ الأدب العربى - حنا الفاخورى - ط ١٩٥١ م

٨- التراث النقدى قبل مدرسة الجيل الجديد / عبد الحى دياب ط ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨ م دار الكاتب العربى للنشر - القاهرة .

٩- تطور الشعر العربى الحديث فى مصر د/ ماهر حسن فهمى ط / ١٩٥٨م - مطبعة الرسالة .

١٠- تطور القصيدة الغنائية فى الشعر العربى الحديث د/ حسن احمد الكبير ط دار الفكر العربى .

١١- ديوان البحترى - تحقيق / حسن كامل الصيرفى - المجلد الرابع ط الثانية دار المعارف .

١٢- ديوان البارودى تحقيق / على الجارم ج١ ط ١٩٥٣م - المطبعة الاميرية القاهرة .

١٣- ديوان محمود سامى البارودى شرح / على عبد المقصود عبد الرحيم ط الاولى - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ دار الجيل - بيروت .

١٤- شعر الطبيعة فى الأدب العربى د/ سيد نوفل ط ١٩٤٥م

١٥- شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى / عباس محمود العقاد / دار نهضة مصر للطباعه والنشر - الفجالة - القاهرة

١٦- الطبيعة بين المحافظين والمجددين فى الشعر العربى الحديث فى مصر د/ مفيدة ابراهيم على - رسالة ماجستير ١٩٩٠م .

١٧- فنون الأدب العربى - الوصف - وضعه لجنة من ادباء الأقطار العربية ط الثالثة دار المعارف .

١٨- فى الأدب الحديث / عمر الدسوقى جـ١ ط السابعة دار الفكر العربى ، و ط الخامسة سنة ١٩٦١ م.

١٩- مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنـــات - بـــالمنصورة العدد الثانى ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩ م بحث بقلم د/ مصطفى مصطفـــى البسطويسى .

٢٠- مجلة الهلال - عدد مارس ١٩٧٢م - مقال قلم د/ عبـــد القـــادر القط.

٢١- محمود سامى البارودى شاعر النهضة د/ على الحديدى ط الثانيـــه - مكتبة الأنجلو المصرية .

٢٢- المفصل فى تاريخ الأدب العربى / احمد الاســـكندرى وآخـــرون جـــ٢

٢٣- نوابع الفكر العربى - محمود سامى البارودى - بقلـــم / عمـــر الدسوقى - ط الرابعة - دار المعارف .

٢٤- وصف الطبيعة وتطوره فى الشعر العربـــى / محمـــد خلـــف الله وآخرون - مكتبة نهضة مصر - الفجالة.

٢٥- الوصف فى الشعر العربى / عبد العظيم على قنـــاوى جـــ١ ط الاولى - ١٣٦٨ هـــ - ١٩٤٩ م.